قصص
فرنسية
قصيرة

موريس بونس

ترجمة رعد اسكندر



دار المأمون

الحلو - المر

قصص فرنسية قصيرة



دار المأمون

الحلو - المر

قصص فرنسية قصيرة

تأليف

موريس بونس

ترجمة

رعد اسكندر

دار المأمون للترجمة والنشر

Doucè-Amere

الحلو ـ المر

قصص فرنسية قصيرة

Maurice Pons

موريس بونس

دار المأمون للترجمة والنشر

وزارة الثقافة والاعلام

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٣٨) لسنة ١٩٨٨

توجه المراسلات الى:

دار المأمون للترجمة والنشر

وزارة الثقافة والاعلام

بغداد ـ الجمهورية العراقية

ص . ب : ٨٠١٨

تلكس : ٢١٢٩٨٤

طبع بمطابع دار الحرية للطباعة ـ بغداد

مترجم عن الفرنسية

المحتويات

مقدمة :

موريس بونس قاص فرنسي شهير ومارس من قبل التمثيل والصحافة وكان أحد مالكي دور النشر الفرنسية ويمارس الآن انشطة متعددة .

ونظراً الى ارتباطه الشديد بعالم السينما فقد أخرج بنفسه فلماً قصيراً يدعى «النائمة» . كما ألف مسرحية جميلة أطلق عليها اسم «شتو» ، ونقل الى الفرنسية مسرحية آرثر ميلر «ذكريات يومي الاثنين» ومسرحية «رقصة العريف موسجراف» لجون آردن . ويعُد موريس بونس مترجماً من الطراز الاول لاعمال نورمان ميلر وجيرزي كوزنسكي وتينيسي وليامز الذي يرى فيه الكاتب المثالي . وترجم ايضا سيناريوهات أفلام برجمان ووضع مؤخراً كتاباً عن الرسام باتينير .

وبايجاز أن بمستطاعه ـ كما أشار الى ذلك بسخرية في إحدى رواياته ـ ان يفتح حانوتاً صغيراً في احد الاحياء الشعبية تعلق عليه هذه اللافتة : «موريس بونس كاتب شعبي» . وعندما يتفرغ لكتابة اعماله الخاصة يبذل عناية وجهداً كبيرين ويتأنى طويلاً قبل اتمامها .

وتعُد روايته «روزا» اكثر مؤلفاته نجاحاً وهي مزيج من السخرية المسلية والغنائية .

أما كتابه الاكثر اثارة للدهشة فهو «الفصول» الذي يعبر أفضل تعبير عن الفكرة التي تسيطر عليه وهي وجود «عالم آخر» .

وكتـاب موريس بونس هذا ظهـر بعد ست سنوات من صدور كتابه «بيت صنّاع الجعّة».

وقــد اجـاب بونس عن سؤال لأحـد الصحفيين عن الـوقت الـذي استغرقه في كتابه «الحلو ـ المر» قائلاً بنظرة فيها شيء من المكر:

«لقـد استغـرقت كتـابته خمسين عاما، وما أريد قوله أنني احتجت الى حيـاة كاملة كي انجـزه.. فالعبارات تنبع من الصور والذكريات، والعمـل هو ليس مجـرد الـوقت الـذي نستغـرقه لوضع العبارات على الورق..».

ان التنـاقض المـوجـود في العنوان نلاحظه ايضاً في الكتاب، فكل قصـة فيـه تنزلق رويداً رويداً الى نهاية رهيبة أو مفزعة: موت عنيف، اختفـاء أو انتحـار. وهي مزيـج من الجمـال والفـزع، فيتكـون لدينـا انطباع أن للجمال مزايا بينما تقول الحقيقة خلاف ذلك وحينئذ يتجلى الموت بفظاعة أكبر.

ويضيف موريس بونس: «احاول ان أخفف من وطأة الرعب، فأنا شديد الاعجاب بالحوادث لسبب بسيط هو ربما لاني ما أزال على قيد الحيـاة وقـد شاهـدت من قبل الكثير من الناس يموتون أمام عيني. الا اني امتلك في الوقت نفسه الامل المتمثل في وجود شكل آخر للحياة، ذلـك الاستحـواذ السحـري الخفي الذي يدفعني دوماً الى التفكير في العيش في عالم آخر خارج ما اسميه «الجثة الارضية..».

ويرى موريس بونس ان الحياة غير مشوقة ما لم نضف اليها شيئاً ولو تافهاً من اللاواقع، وان علينا ان نكون حالمين ليس لأجل خلق عالم جديد، بل لنمنح عالمنا الحاضر بعداً ومعنىً بعد ان نضيف اليه نوعاً من العذاب.

ويقول بونس: «لا أعرف ما هي الحقيقة غير ان الذي يهمني كيف أعيشها وكيف أراها وكيف أتأملها واذا فكرت يوماً في كتابة مذكراتي، كما يفعل الجميع فانها ستكون مذكراتٍ كاذبة لانني أعلم سلفاً أني لن استطيع منع نفسي من الكذب والغش».

وأخيراً فان موريس بونس روائي واضح المعالم والهدف فهو لا يحاول استخدام التزويق اللفظي والتعابير الرنانة للوصول الى غايته. ان عالمه مرعب لكنه قريب من الواقع.

المترجم

ابن الخباز

كان والـدي خبـازاً وابن خبـاز وكنت آنـذاك طفـلاً صغيـراً عنـدما اشترى والدي المخبز الوحيد في بلدة سان غراسيان الواقعة في مقاطعة لاكـروز. إني اتـذكـر بدقة بالغة فترة اقامتنا في هذه المقاطعة الجديدة وفي هذا البيت الجديد وهذا المخبز الجديد.

تتميـز مقـاطعـة لاكروز بشتاء قارص وبصيف كئيب. كنت اذهب الى مدرسة البلدة وكنت طالباً مجتهداً غالباً ما كانت تقرأ المدرّسة في عيني رغبة جامحة في العمل والتعلم وربما النجاح يوماً ما في خلافتها في المدرسة ذاتها، ولكني كنت أعلم ايضاً ان والدي قد اتخذ قراراً ان يعلمني باقـرب فرصـة ممكنـة المهارة اللازمة لاكون خبازاً ناجحاً لكي أخلفـه بشـرف في الفـرن والمخبـز اللذين يملكهما. كان مصيري في ذهنه مؤمناً وطريقي قد اختطت مسبقاً.

كان والـدي كمـا يقال عنه رجلاً طيباً وأميناً شغوفاً بعمله وأتذكر انه كان كتـومـاً ومنغلقاً على نفسه. وأعتقد اليوم انه كان يخفي طيلة حياته سراً دفيناً في اعماقه.

كان مخبـز سان غراسيـان يمثل تجارة مزدهرة،فهو يقع وسط البلدة ويؤمـه زبـائن منتظمـون . وفي أيـام الآحـاد كانت والـدتي ومساعدتها تبيعان عدداً كبيراً من الفطائر والمعجنات .

لقد لاحظ والدي بسرعة ان العاملات الشابات اللاتي يعملن في المصنع لم يعدن يذهبن لتناول طعامهن في الحانوت المخصص لهن بل كنَّ يفضلن بدلاً من ذلك شراء الخبز المطعّم بالشوكولاته أو الفطائر من مخبزنا ليتناولنها على المصاطب المنتشرة في الميدان عندما يكون الطقس جميـلاً أو يذهبن لتنـاولهـا في المقهى المقـابل للمخبز عندما يكـون الجـو ماطـراً أو بارداً ، فقرر والدي ان يستخدم بائعاً لمساعدته ، وبدأ بصنع أكلات جديدة فضلاً عن الفطائر والخبز حتى وصل به الأمر الى انتـاج البيتـزا .* وقـد لاقت هذه المبـادرة التي كان يندر القيام بها انذاك نجاحاً منقطع النظير في انحاء سان غراسيان كافة .

كان أبي يخبز خلال الليل بغية ان يكون الخبز جاهزاً في الصباح البـاكـر ، وحين ما تهيأ الخبـز وصُفَّ بترتيب على الرفوف المعدنية كان يأتي البائع لتسلّم مهام عمله ، فتنزل أمي لفتح المخبز . لقد اعتاد أبي الـذهـاب الى المقهى الـذي يفتح ابوابه في الساعة ذاتها حيث يحمل هنـاك بنفسـه مجمـوعة من أرغفة الخبز وسلة من الفطائر ، وكان يجلس الى المائدة ليرتشف «عصيره» وليقرأ الصحيفة المحلية وليدخن ومن ثم يعـود الى المنـزل في الـوقت الـذي كنت استعـد فيـه للذهـاب الى المدرسة ، ويخلد الى النوم حتى الظهر .

---

* البيتزا ـ فطيرة من اللحم المفروم والطماطم والجبن .

كان هذا الجـدول الـزمني يبـدو لي قوانين ثابتـة لا تتغيـر، بيد أنني اكتشفت على مر الاعـوام ان والـدي أخذ يمد شيئاً فشيئاً فترة استراحته الصباحية في المقهى.

كنت اشاهده كل يوم تقريباً وأنا في طريقي الى المدرسة من خلال الـواجهـة الـزجـاجية للمقهى وهو جالس الى «مائدته» في نهاية القاعة ضخم الجثـة،وحيـداً صامتـاً غارقـاً في قراءة صحيفتـه أو ضائعـاً في أفكاره. ما كان يفعل هناك كل هذا الوقت الطويل؟
لماذا كان يؤخر دوماً موعد عودته الى المنزل ؟

كان في بعض الاحيان يلمحني وأنا أسير على الرصيف فيشير اليّ بالـدخـول. . فاذهب لأُقبله بسـرعـة ولم يكن ليستبقيني طويلاً. كان يقول لي:

ـ اذهب الآن بسرعة ولا تتأخر.

وفي يوم عيـد ميـلادي الـرابـع عشر الذي يصادف الرابع من شهر كانـون الثـاني، وهـو يوم تسـاقطت فيه الثلوج وانتشر الضباب، لم يعد والـدي الى المنـزل. لقـد رأيتـه صبـاحـاً من خلال الواجهة الزجاجية للمقهى وحيداً صامتاً جالساً بجسمه الضخم في نهاية القاعة وقد وضع سترته المبطنة بالفراء على كتفيه فوق ملابس عمله.

لقد توجب عليّ ان اكرر عشرات لا بل مئات المرات أمام والدتي أولاً وأمـام رجـال الشرطة والقضاة فيما بعد التفاصيل الكاملة لشهادتي. التي وثّقت ايضـاً من جانب صاحبـة المقهى السيـدة ڤاشيه. لقد رأت والـدي وهـو يخـرج من المقهى حوالي الساعة الثامنة والنصف صباحاً

بعد ان دفع ثمن صحيفته وعلبة دخانه كما كان يفعل كل يوم .

إنه لأمر بعيد الاحتمال ان يختفي رجل في الاربعين من عمره في الطريق ما بين المقهى الذي يقع في زاوية الشارع والمخبز المواجه له! ومع ذلك فقد اختفى والدي هناك في صبيحة ذلك اليوم الضبابي المتجمد،ولم يره أحد قط منذ خروجه من مقهى السيدة ڤاشيه في بلدة سان غراسيان التابعة لمقاطعة لاكروز.

كان الشعور السائد في منزلنا هو قبل كل شيء الضيق والدهشة . سألتني والدتي فور عودتي من المدرسة قائلة :

ـ ألم تر والدك؟

ـ بلى لقد رأيته هذا الصباح عبر الواجهة الزجاجية لمقهى السيدة ڤاشيه .

لقد هزتني في اسلوبها الذي يفتقر الى الرقة عندما قالت:

ـ ولكن أين ولى هذا الحيوان!

كنا مقتنعين انه لم يذهب بعيداً لان السيارة ظلت قابعة في المرآب .

كانت المشكلة الاولى التي يجب حلها فوراً تتعلق بوجبة الخبز المسائية لاننا كنا نعلم جميعنا في البيت ان القاعدة الذهبية لأي مخبز ناجح هي ان لا يفتقر قط الى الخبز.

كان أبي يكرر دوماً : «يجب ألاّ ينقص رغيف خبز واحد في أي يوم من أيام العمل» .

لقد امدتنا المجمّدة بحاجتنا من الخبز في المساء الاول

وبـالمصـادفـة المحضة طلبت والدتي من فردريك البائع القدوم مبكراً لضمـان وجبـة الخبـز الصبـاحية ، وكان من حسن طالعنا ان تطلب اليه ذلك لان والدي لم يعد في الليل ولا حتى في الفجر.

وعلى أثر الدهشة والضيق ساد قلق حقيقي أومتصنع ، وفي مساء اليوم الثـالث اتصلت والـدتي هاتفيـاً بالشـرطـة لتبلغهم بالاختفـاء الغامض لزوجها. فقاموا بتسجيل الابلاغ غير أنهم لم يُظهروا تأثراً شديداً مثلها وطمأنـــوهـــا بانهم على أيـة حال لم يسجلوا خلال الثمـاني والاربعين ساعة الماضية أية حادثة طريق أوغرق في منطقة لاكروز الصغيرة أوفي برك منطقـة الـلاسـورج . لقـد كانـوا على قناعة انها مجرد حالة معتادة لاختفاء زوج بسبب مشكلة زوجية سرعان ما تنتهي فجأة كما بدأت .

استفسر رجال الشرطة من والدتي بلطف شديد قائلين :

ـ هل كنت على علم بأنـه على علاقـة بامـرأة أخرى في هذه المنطقة؟

واحسـاسـاً منها بالمهانة والخجل أقسمت بانهما كانا يعيشان سوية منذ سبع سنوات في قرية سان غراسيان وأن والدي لم يغب ولو لليلة واحدة عن المخبـــز،وحتى في أيـام الآحـاد كان يبقى في المنـزل لمشـاهـدة التلفاز.

وفي يوم الاثنين من الاسبـــوع التـــالي بدأ الجميـع يثـرثـرون في القرية ، وطلبت والدتي نشر اعلان للبحث عنه . ولهذا الهدف بالذات حضـرت الشـرطـة للمـرة الاولى الى منزلنا وقامت بتفتيش دقيق للغرفة وخـزائن المـلابس والادراج فضـلاً عن مخبـز والدي.وأستُجوبت لفترة طويلة وجمعـوا الادلـة والافادات وتوصلوا الى استنتاج مفاده ان أبي قد

خرج من المنـزل دون أوراق أوحقـائب ودون مال تقـريبـاً وكان يرتدي لبـاس العمـل الخـاص بالمخبز وسترة من الفراء ويحتذي خُفاً جلدياً . وحتى و هوبهـذا الـزي غيـر المألوف بعض الشيء لم يجلب انتباه أي من ساكـنـي سان غراسيـان أو بوسـاك أو بونـا ولم يره أي من موظفي السـكـك الحديدوهـو يستقـل القطـار في جيريه ولا في مونلوسـون كما أن صورته التي نشرت في الصحف المحلية وعُلقت في محطات القطار وعلى لوحات الاعلان لم تدفع احداً لتقديم أية شهادة عن غيابه .

الاعلان لم تدفع احدا لتقديم أية شهادة عن غيابه .

أمـا فردريـك نوش البـائـع الذي أنقذ المخبز بحلوله محل والدي على الفرن فانه لم يتأخر كثيراً في الحلول مكانه في المنزل ايضاً . وما أريـد قولـه انه حل محله على مائدة الطعام العائلية وفي سرير والدتي . لقد كان بعمر والدتي تقريباً وكان رجلاً جذاباً منفتحاً على الحياة بقدر ما كان والدي منغلقاً على نفسه . كنت متفاهماً معه حيث كان يعاملني كأخيـه الاصغـر بدلاً من ابنـه لقـد تمكن من اقناع والدتي بشراء سيارة جديـدة مع مقطـورة وكانت المرة الاولى التي نغادر فيها سوية في رحلة استجمـام . لقـد شاهـدنـا البحـر للمـرة الاولى في منطقـة جرودوروا بالقـرب من مدينـة نيم ، واني مدين له بامكانيتي متابعة دراستي . وبعد حصـولي على الشهـادة الابتـدائيـة بتفوق أصر على دخولي الى ثانوية جيريه كطالب داخلي . كنت أعود الى منزلي كل يوم سبت ، وإبان أيام الأعياد وكنت اساعد فردريك ووالدتي في اعمال المخبز.

أما سكان المنطقة ورفاقي في المدرسة فكانوا ينظرون الى القضية

بعين متسامحة . كنا نسمعهم يقولون أحياناً :

«لقد حقق نوش مأربه بنجاح» .

وبعد مرور اعوام عدة على أختفاء والدي كان البعض ما يزال يتفوه بهذه الحكمة المثقلة بالمعاني الكامنة والتي تقول «كأن شيئاً لم يكن...»؟

كنا في البيت نرفض تماماً فكرة وفاة والدي وحتى امكانية قيام شخص بمحاولة اغتياله ، لقد كان أمراً لا يمكن تصديقه . كنا متمسكين تماماً بما قالته والدتي : «لقد رحل ، لقد رحل!».ولم نعد نرغب في معرفة أين؟ وكيف؟ وبغية أن أقول كل شيء فاني أقر بأنه كان ينتابنا شعور بالضيق اكثر من الشعور بالحزن .

وفي ليلة عيد ميلادي الخامس عشر الذي احتفلنا به عائلياً في منزلنا وصادف يوم أحد من تلك السنة صحبني فردريك بالسيارة-كما هو الحال كل يوم أحد-الى الحافلة التي كانت تقلني الى مدينة جيريه . لم يكن هناك كما هو معتاد سوى عدد قليل من المسافرين في مثل هذه الساعة ومثل هذا الموسم ، وكنت اجلس على المقعد الامامي للمركبة على يمين السائق . كان السيد مارسيو يقود الحافلة على الخط ذاته منذ سنوات وأنا اعرفه جيداً . وعند حلول الليل كنا نسير ببطء وكانت المصابيح تضيء طريقاً ضيقة ومعتمة وخالية ، وفي محطة التوقف الاختيارية لمنطقة لادابير التي تقع وسط الريف لمحت من بعيد رجلاً واقفاً تحت المصباح ملوحاً بيده للسائق ، فخفف مارسيو سرعة المركبة

ثم أوقفها وفتح الابواب . وَهَمَّ الرجل بالصعود وأُقسِمُ بانه وضع احدى قدميـه على أرضيـة الحافلة حين غير رأيه واستدار فجأة وعاد مشياً على الاقدام في الاتجاه المعاكس للطريق. هزّ مارسيو كتفيه وأغلق الابواب مرة أخرى وواصل السير. لم يستمر المشهد لاكثر من دقيقة واحدة ولم ألحظ وجه هذا الرجل الا بصعوبة غير انه انتابني شعور داخلي غريب، فنهضت من مقعدي وتقربت من السائق وقلت له:

- لن تصدقني اذا قلت ان السيد الذي اراد الصعود بدا لي كأنه والدي.

كان رد فعل السيد مارسيو قاسياً حين قال:

- أنت لست على ما يرام كما يبدو منذ رحيل والدك، وانت تعرف انه لم يعد الى هذه المنطقة منذ يوم رحيله.

عدت الى الجلوس على مقعـدي غيـر أن مارسيو لم يستطع تهدئتي تمـامـاً، كنت أعلم انه لم ير هذا المسافر أفضل مني وهو جالس خلف المقود منشغلاً بالقيادة.

وبينما كانت الحافلة تسير ليلاً باتجاه جيريه بقيت فريسة للعذاب ذاتـه والشكـوك ذاتهـا. وقـد ساهم مارسيـو في تأجيـج شكوكي عندما أخذني جانباً بعد وصول الحافلة ليقول لي بنبرة تحمل في طياتها سراً:

- لا تقص ذلك على والدتك قط، هل فهمت؟ لانها ستتعلق باللاشيء.

احتفظت لنفسي بهـذا السـر الرهيب ولكن منذ هذا الحدث ولدى ذهابي كل يوم أحد الى جيريه لم أكن استطع ان أمنع نفسي من ترقب

وصـولنـا،وبشيء من الخـوف، الى محطـة التـوقف الاختيارية لمنطقة لادابير، بيد أني لم ألمح قط المسافر الذي رأيته في تلك الليلة .

كنت أحد لاعبي فريق كرة القدم في الاعدادية وألعب بمركز الجناح الايمن وفي تلك السنـة وبمسـاعدة مدرب جديد كان في السابق لاعباً محتـرفـاً في فريق النجم الاحمر استطعنا ان نحقق موسماً جيداً جداً . حيث ذهبنـا في أحـد أيـام الخميس للمشـاركة في نهائي بطولة كروية للشباب جرت في مدينة مونلوسون وكان يوماً عظيماً بالنسبة لنا وخاصة بالنسبـة لي لان المبـاراة جرت في اليـوم الرابع من كانون الثاني الذي يتـوافق مع تاريـخ ميـلادي . كنت واثقـاً ومصـراً على ان أتفـوق على نفسي، ففي الاسبـوع المـاضي كنت وراء تسجيـل هدف الفـوز على فريق أوبـوسـون وكنت أتمنى أن أسجـل بنفسي الهدف في هذه المرة ايضـاً . ومنـذ الـدقـائق الاولى للمبـاراة انطلقت كالنيزك لتلقي تمريرة سريعـة الى الامـام من أمـودروز فاصطـدمت باقصى سرعتي بأحـد مدافعي الفريق الخصم الذي كان قد رمى بنفسه مثلي على الكرة .

وجـدت نفسي ممـدداً على نقـالـة وملفـوفـاً بغطاء فدنا مني رجل يرتدي لباساً أسود هوزي حكم المباراة وربت على وجنتي . بدا لي انه كان أبي ففقـدت الـوعي ونقلت الى مستشفى المدينة حيث بقيت ليلة واحدة تحت المراقبة . وقد أتى المدرب لاخراجي صبيحة اليوم التالي وصحبني حتى قريـة سان غراسيـان . كان فريقنـا قد فاز بهدفين مقابل هدف واحد.ولم يكن المدرب يعرف الحكم ولا مراقبي الخطوط من قبل .

وفي العـام الـلاحق خرجنـا في العطلة الشتـوية وكانت تلك المرة الاولى التي أكتشف فيها جبال الألب من خلال محطة حقيقية للرياضة الشتـويـة،واستمتع بمباهج التزحلق على الجليد في مدارج مهيأة جيداً وقـد أبليت بلاءً حسنـاً بالنسبـة لممارس مبتدىء . وفي الرابع من شهر كانون الثاني أركبنا المدرب في احدى عربات التلفريك التي تمر فوق المحطة بغية نقلنا الى قمة جبل كروادي بيرش . كنت واقفاً في مؤخرة العربة الى جانب زجاجة النافذة الكبيرة وأنا اشاهد مباني المحطة التي كانت تصغر شيئاً فشيئاً كلما واصلنا الارتفاع . استمتعت بتحديد مكان المقهى ورصيف (لاكليمـانس) ومعـرض الادوات الـريـاضيـة الـذي استأجـرنـا منـه زلاجـاتنـا وكـذلـك السـوق المركزي والمكوى ومحل المأكولات الخفيفة . .

ولـدى نزولنـا باتجـاه متجر اللحوم لمحت رجلاً يرتدي ملابس خباز وسترة من الفراء عاري الرأس ممسكاً بيده حقيبة جلدية كبيرة كان يسير بخطى قصيرة وباضطراب على الجليد وهو ممتلىء الجسم وعنيد يتميز بشـىء من الـعنف في مشيتــه لم اتمكن من رؤيتــه بوضـــوح الا انني شاهـدتـه يدخـل أحد المتأجر ويغلق الباب خلفه،رأيته من خلال نوافذ العـربـة التي كان يعلوهـا البخـار وتسيـر بسـرعة كبيرة . أحسست فوراً بانفعـال شديـد جعـل رجلي ترتجف فزعـاً فتعلقت بكلتا يدي بعارضة الاسنـاد التي كانت تحيـط بالنـوافذ ولا شك ان لوني قد أصبح ممتقعاً لأن أحد رفاقي شعر بضرورة الاستفسار مني قائلاً :

ـ هل أنت على ما يرام؟ ما الذي حدث لك؟

فأجبته باختصار:
- لا شيء ، لا شيء

وفور وصولنا قمة لاكروا احتذيت زلاجاتي بسرعة وبدلاً من أن التحق بالمجموعة التي يقودها المدرب والتي كان يفترض ان تنحدر الى الوادي المجاور توجهت في الحال الى المدرج الازرق الذي يؤدي الى المحطة دون ابلاغ أحد خلافاً لقواعد السلامة.

وصلت مباشرة أمام متجر اللحوم ومن ثم دخلت المتجر الذي كان خالياً وظهرت البائعة من خلف ستارة من الكرات الخشبية. كان وجهها جذاباً ممتلئاً صحةً وعيناها زرقاوان واسنانها سليمة، ترتدي صدرية صغيرة زرقاء فوق بلوزة صوفية سميكة وسروالاً صوفياً. ولا أدري لماذا أوحت لي بالثقة فور رؤيتها. قلت لها:

- المعذرة يا سيدتي. اني ابحث عن والدي لقد رأيته يدخل الى هنا منذ هنيهة.

أكدت لي انه لم يكن هناك أحد قط في محلها باستثناء مساعدها الشاب في المطبخ وانها لم تر صباح هذا اليوم أي رجل في الاربعين من عمره يدخل الى متجرها وهو يرتدي لباس خباز وسترة من الفراء ويحمل في يديه حقيبة جلدية.

لم يكن بوسع هذه المرأة ان تكذب أو أن تخفي شيئاً.وقد عدت لرؤيتها مرات عديدة خلال فترة اقامتي ووثقت بها بشكل غريب فبحت لها بشكوكي وبأحزاني ولكن عليّ أن أقر اليوم انه باستثنائي لم ير أيّ شخص أبي قط في هذه المحطة الواقعة في جبال الالب سواء أكان

ذلك في ذلك الصباح أم في أي يوم آخر. فضلاً عن ذلك فان الاختفاء المفــاجىء لوالــدي وهــذه اللقــاءات الغـريبـة قد ساهمت كثيـراً في اضطراب فترة مراهقتي وخاصة انها كانت تتكرر وبصورة لا مفر منها في يوم بعينه هو يوم عيد ميلادي.

لقـد اصبـح اليوم الرابع من كانون الثاني بالنسبة لي ذكرى اختفاء والدي. إن الانسان يصدق بسهولة الخرافات في مثل هذه السن التي يكـون فيهـا الـذهن مشـوشـاً. ففي نهاية كل عام واعتباراً من بدء شهر كانـون الاول كنت أتـوجس خيفـة من فتـرة العطلة والاعياد هذه وأشعر بالخشية واتمنى في الوقت ذاته اقتراب اليوم المقدر الذي قد التقي فيه بوالدي.

وعندما كان يلوح مشروع رحلة أو خروج في هذه الفترة من السنة لم يكن بوسعي منع نفسي لا شعورياً من توجس الظروف التي ستحيط بلقـائنـا المقبـل. لقـد كنت متيقظـاً لابسط العلامات الشاذة ولم يكن بمقـدوري تفـادي التفكيـر ان والدي في حياته الاخرى كان على علم بتحـركـاتي وأفعـالي وتنقـلاتي انه كان ما يزال يحبني بطريقته الخاصة وأنه كان يرتب حالات ظهوره السريعة والمباغتة.

وفي أحـد أيـام الآحاد المصادف الرابع من كانون الثاني ومحاولة مني تحـدي والـدي قررت البقـاء وعدم الخروج من المنزل يوماً كاملاً وكانت والدتي وفردريك قد أقترحا اصطحابي معهما لتناول العشاء في فنـدق حديث افتتـح في ضواحي مدينـة شامبـون. وبحجـة واجبـاتي المـدرسيـة فقـد فضلت البقاء وحدي مع صحن فيه فطيرة محشوة أمام

التلفزيون . لقد استطعت أن أقاوم حتى موعد فلم الاحد المسائي محاولاً ابعاد ذهني عن الشكوك التي كانت تغمرني . ولكن بينما كنت اشاهد نشرة الاخبار المسائية الاخيرة على القناة الاولى ظهر تقرير عن احدى حوادث المرور الفظيعة في المنطقة القريبة من مولان على الشارع العام رقم (٧) حيث اصطدمت حافلة تقلُ اطفالاً بمؤخرة شاحنة عاطلة على الطريق . ومن بين رجال الاطفاء الذي هرعوا لنجدة الضحايا لمحت لثوان معدودة رجلاً يرتدي قبعة ذهبية وسترة جلدية سوداء ، لقد كان أبي . .

وفي عام آخر تشوبه الخشية ذاتها حصلت على موافقة لقضاء فترة الاعياد في باريس في منزل عم صديقي بيرتران الذي عرض ايواءنا لديه.ولم نكن نقيم في الواقع في باريس ذاتها وانما في أحد الاحياء القريبة وبالتحديد في حي غانيي حيث كان يمتلك السيد غانيير بيتاً صغيراً. كنا نتجول طيلة النهار في ازقة باريس ونغير يومياً حياً جديداً . وشاهدنا المتاحف والنصب التذكارية ودور العرض والمسارح وكل ما يمكننا رؤيته بقدر ما كانت تسمح به مواردنا المالية .

وفي المساء كنا نستقل القطار الاخير من محطة الشرق عائدين الى غانيي ونحن منهوكو القوى ولكننا سعداء ومبهورون .

وإذ كانت اجازتنا تشرف على نهايتها قررنا في ليلة الثالث من كانون الثاني ونحن بانتظار القطار ان نتناول وجبة دسمة من طبق الشكروت* في أحد المطاعم المحيطة بالمحطة حيث بقيت لدينا

---

* الشكروت ـ طبق تشتهر به منطقة الالزاس الفرنسية.

كميـة لا بأس بهـا من المـال. واحتسينـا قنينـة كاملة من نبيذ الالزاس شعرنا على اثرها بالغبطة والانشراح.

ولدى خروجنا من المطعم استوقفتنا فتاتان على قدر كبير من الجمال يبـدو عليهمـا البشر والحبور وفجأة عرضتا علينا مرافقتهما «كرفاق» الى الرقص في احدى العلب الليلية التي يعدانها لطيفة ومحبوبة غير انهما لا تجرآن على الدخول اليها بمفردهما خشية اعتبارهما من العاهرات.

أثـار بيـرتـران فوراً قضيـة القطار الاخير الذاهب الى غانيي والذي سيغادر خلال خمس دقائق. فقالت الفتاتان:

- لا يهم ذلك، نحن نمتلك سيارة!

هرب بيـرتـران مسـرعـاً، أمـا أنـا فلم استطـع مقاومة هذا العرض المغـري فوجـدت نفسي جالسـاً الى مائـدة في الملهى بين الشـابتين وأمـامي جردل بداخله قنينـة من الشمبـانيـا ظهرت فجأة على المائدة. وكنت ارقص بالتنـاوب مع هاتين الانستين وأخـذت اغـازلهمـا شيئـاً فشيئـاً. كانتـا منسجمتين وهما تضحكان مع لعبتي الصغيرة هذه. ولم يمض وقت طويـل حتى اكتشفت بأني في كل مرة كنت اعـود فيهـا الى مائدتي أجد يداً خفية تملأ الاقداح الفارغة وغالباً ماتجلب قنينة جديدة من الشمبـانيـا كما اكتشفت في لحظة ما ان احدى الفتاتين كانت تقوم بافراغ الكؤوس داخل جردل الثلج بينما كنت اغازل الفتاة الاخرى..

وعلى الرغم من سذاجتي فقد فهمت اللعبة غير أنني صممت على ان يكـون تصـرفي لائقاً وأنا منتشٍ بالشمبانيا فقمت بنفسي بتجديد قناني الشمبـانيـا ماركـة (مم) وكنت احتسي الكأس تلو الاخرى حتى غفوت

على المـائـدة واضعـاً رأسي بين ذراعي المتشابكتين ومستغرقاً في رقاد مفاجىء وعميق.

وفي فجـر هذا اليـوم الرابع من كانون الثاني انحنى رجل عليّ في الجهـة الاخـرى من المـائدة وهزّ كتفي بيد قوية وضخمة وبحزم ولكن دون فظاظة وقال لي:

- عليك ان تدفع الحساب وتغادر الآن يا صبي.

رفعت رأسي كمـا لوكنت في ضبـاب كثيف ورأيت وجهـه فوق رأسي فجأة بعينيـه الحـزينتين وشفتيه الرقيقتين. كان يرتدي ثياباً بيضاً فسترتـه بيضـاء وقميصـه ابيض وربطة عنقه بيضاء أيضاً. كان الملهى خالياً والضياء شديدا والخدم يرفعون الاغطية ويغيرون مواضع الموائد والمقاعد.

ألقيت نظرة فاحصة على هذا الرجل كما لوكنت أمام رؤيا، كنت متأكـدا انـه سيتعـرف عليّ، تراجعت الى الخلف نحـو أحـد المقاعد وبحـركـات متـرددة شديـدة البـطء ودون ان أتـوقف عن تفـرس وجهـه أخرجت من محفظتي كل ما تبقى لي من اوراق نقدية ويبدو انها كانت تكفي تقريباً لتسوية الحساب. وضع الرجل النقود في جيبه دون عدّها فهز رأسه ورفع كتفيه وقال بنبرة يشوبها الحزن اكثر من القسوة:

- هل تدري كم شربت؟ انه لشيء كثير بالنسبة لشخص في سنك وفي ليلة واحدة.

وفي غمرة ضياعي كنت ابحث بيأس عن طريق منيرة تدلني على والـدي وعن كلمـة سر تفتـح أمـامي ابـواب طفولتي. غمغمت بصوت

ثقيل قائلاً :

ـ هل تعرف مدينة سان غراسيان الواقعة في منطقة لاكروز ؟

ربما لم يسمعني ! امسكني من ذراعي وساعدني على النهوض ولم استطع الوقوف على قدمي الا بصعوبة بالغة .وقادني بخطوات وئيدة الى باب الخروج من الملهى الذي يطل على شارع صغير مُعتم.

سألني قائلاً :

ـ ألم يكن لديك معطفاً؟

بلى لم أكن لأمتلك معطفاً.وسرت الى الامام بلا هدى بمحاذاة جدران العمارات حتى وصلت الى ساحة صغيرة مثلثة الشكل مزروعة ببعض الشجيرات الهزيلة فتشبثت باحداها وسقطت على ركبتي وتقيأت ، ولا اعرف كيف وصلت الى غانيي ، ولكن ما أعرفه هو اني لم استطع فيما بعد العثور على هذه الساحة الصغيرة المزروعة بالاشجار في باريس ولا على الباب الضيق لذلك الملهى الكائن تحت الارض والذي خدعت فيه في تلك الليلة .

كنت في السن التي نحب فيها السفر والرحلات والتعرف على الاشياء . وقد تمكنت من القيام برحلة الى هولندا . واستمتعت باكتشاف المتحف الجديد للفنان غوغان الذي كنت أعده اكبر رسام معاصر انذاك وفي داخل اعماقي كنت على اعتقاد ان البُعد والغربة والجمارك والحدود قد تجعلني اتجنب أي لقاء عفوي في تلك السنة .

وفي اليوم الاخير من رحلتي الانفرادية وبينما كنت استند الى

سياج أحد الممرات أرقب بانتباه حركة الملاحة ومناورات القوارب على المياه الهادئة لمحت تحتي على مبعدة ثلاثة امتار شخصاً غريباً جالساً على مصطبة حجرية وكان ملتحياً أشعث يرتدي سترة قديمة وقذرة من الفراء ويغطي رأسه بقبعة غريبة الشكل، وقد تمدد على ظهره ورجلاه متباعدتان وقد وضعهما على رزمة من الصحف ووضع على ركبتيه كلباً سائباً كريهاً ذا فروة صفراء وبيضاء باهتة وقذرة،

بدا هذا الرجل الذي لم يكن يعرف انه كان مراقباً، منشغلاً تماماً بمداعبة بطن الحيوان وكان يظهر عليهما شعور غامر بالسعادة والاضطراب في الوقت نفسه. لقد اثار انتباهي حقاً هذا المشهد الغريب للحياة اليومية في هولندا. ولفترة لا بأس بها من الوقت بقيت اراقبه من الممر العلوي عندما رفع رأسه فجأة وكأنه أحس بوجودي .. وتحت قبعته السوداء الواسعة لمحت وجهه والتقت نظراتنا .

لبثتُ مذهولاً للحظة ما، كنت أعلم بأنه كان عليّ أن أتمالك نفسي وأجد فوراً وسيلة للوصول الى حافة القنال، ولكني بعد ان تجاوزت مرحلة الانفعال الاولى اعتراني شعور غريزيّ بالبنوة جعلني اصرخ بكل ما أوتيت من قوة:

- أبي! هذا أنا فابيان! انتظرني!

لقد تمكن والدي من التعرف عليّ جيداً ونكس رأسه ونهض من مصطبته ماسكاً كلبه المقزز بين ذراعيه كما لو كان يحمل طفلاً وانطلق يركض هارباً.

كان الطريق يحتم عليه المرور من تحت الجسر المعدني الذي

كنت واقفاً عليه ، فغيّرت موقعي لكي أرى قبعته تبتعد باقصى سرعة . وبعد أن وصل الى مسافة كافية وعندما أيقن بأنني لن استطيع اللحاق به استدار أبي نحوي وصرخ بصوت أجش وباللغة الفرنسية بالتأكيد قائلاً :

ـ أنا لست أباك! لم يكن لي ابن قط!

ولم أره فيما بعد منذ هذا الاقرار الرهيب .

وبحكم القانون لا بد من انقضاء سبع سنوات على الاعلان الرسمي لاختفاء شخص لكي تعلن المحكمة المدنية وفاته القانونية. وتمكنت والدتي التي اصبحت أرملة رسمياً من الاقتران ثانية بفردريك نوش الذي عاشت معه كزوجة منذ رحيل والدي بيد أني أتذكر جيداً كم كنت ارتعش في يوم الزفاف وأنا افكر في احتمال ظهوره المفاجىء واعتراضه ، وهو امر ان حدث سيكون ذا تأثير كبير على الزواج .

كنت الوحيد الذي يعلم انه ما يزال حياً واننا التقينا مرات عديدة هنا وهناك خلال السنوات الماضية . وباستثناء ما حدث لي في متجر اللحوم في منطقة سافوي فاني لم أبح بهذا السر الثقيل لأحد قط .

وبعد فترة قصيرة على زواجهما باع فردريك ووالدتي المخبز في سان غراسيان وغيرا محل اقامتهما الى منطقة (كرودي روا) حيث ما يزالان هناك . انهما يكونان أسرة سعيدة وجعلاني أشعر بالبهجة بعد أن أنجبا اختين لي توأمين اسمياهما ماري إيف وماري مارت .

أما بالنسبة لي ، فبعد ان أتممت دراستي في دار المعلمين العالية حصلت أولاً على وظيفة معلم التي كنت أحلم بها دوماً ومن ثم رُقيت

لاصبح مديراً لمدرسة سان غراسيان. وأقمت في هذه المدينة وتزوجت فيمـا بعـد من إحدى زميلاتي في الدراسة الاولية. وقد حضرت والدتي وفـرديـك للمشـاركة في مراسيم زفافي مع توأميهما. وفي العام التالي رشحت نفسي للانتخابات البلدية وانتخبت مساعداً لعمدة البلدة التي اقيم فيهـا. وفي العـام ذاتـه بدأت مديرية الطرق والجسور بشق طريق جديـدة تتفـرع عن الطريق العام المحيط بسان غراسيان التي ازدهرت فيهـا الصنـاعـة. ونتيجـة لذلـك اصبح السير متعذراً بسبب الشاحنات الثقيلة. وبدأت الجرافات والمكائن المختلفة تحفر خندقاً هائلاً على حافة المقلع القديم الذي يقع نهاية البلدة.

وفي صبيحـة أحـد أيـام شهـر كانون الثاني حضر رجال الشرطة الى المـدرسـة في نهـايـة الحصص الدراسية واصطحبوني معهم الى موقع العمل حيث كان عمال الاتصالات السلكية واللاسلكية قد توصلوا الى اكتشـاف مذهـل. لقـد وجدوا عظام رجل بالغ مدفون في الرمل منذ ما يقـارب العشـر سنـوات. لم يكن هنـاك ما يدل على ان هذا الهيكـل العظمي المشـوه والمفكـك يعـود الى والـدي غير أنه من المحتمل ان يعود اليه.

قال لي مفوض الشرطة:

- مهما حدث، أردت ان أعلمك بذلك، ولكنك بالتأكيد لن تصر على إحياء هذه القضية القديمة من جديد؟

كلا لم أكن لاصر عليها..

النجدة

حدث ذلك صبيحة يوم الأحد في نهاية شهر حزيران . خلدت الى النوم وحدي متأخراً وكنت ثملاً بعض الشيء حين عودتي من الاحتفال الرائع الذي كان قد أعده إيف ـ.ماري بمناسبة عيد ميلاده .

كنت على وشك الاستيقاظ عندما سمعت جرس الهاتف يرن وربما كان جرس الهاتف السبب الاساس في ايقاظي لاني اتذكر انني استغرقت بعض الوقت للتصرف ولكي اتذكر اين كنت ولابحث عن زر المصباح دون ان أجده وأنهض من فراشي واجتاز الشقة تلمساً في نور خافت وأخيراً أتوجه لرفع سماعة الهاتف الذي كان موضوعاً على السجادة بجانب احدى قوائم المائدة المستديرة .

لم يكن لدي الوقت لأقول «ألو»اذ سمعت فوراً صوتاً ضعيفاً يتوسل قائلاً :

- جي . في.! احضر بسرعة ! النجدة!

استمعت من ثم الى صوت جهاز يسقط على الارض والصوت

الذي يصدر عن الهاتف عند انقطاع المكالمة . أقفلت سماعة الهاتف من جانبي ايضـاً . كنت متأكـدا من تكرار المكالمة فانتظرت هنيهة غير أني لم أتلقَ أية مكالمة هاتفية .

وضعت الجهاز على الطاولة المستديرة من الفورميكا ورفعت الستائر المعـدنيـة عن البـاب المطلة على الشـرفة وتوجهت نحو زاوية المطبخ الصغيـر وسخّنت قليـلاً من المـاء لتحضير القهوة السريعة (نسكافة) . ولم تكن الساعة قد دقت السابعة بعد .

جلست على مقعد أمام المائدة الصغيرة واحتسيت قهوتي وأنا أشعل سيكارتي الصباحية الاولى التي أعدها السيكارة المفضلة . كنت أشعر بدوار بسيـط وبألم في رأسي وحـاولت أن افكـر . وكنت الاقي صعـوبة دوماً في التعرف على الاصوات التي اسمعها في الهاتف حتى بالنسبة لتلك التي أألفَهـا جيـداً والتي اعتـدت سمـاعهـا . وكم من المـرات تسببت في جرح شعــور اصــدقــاء اعـزاء عنـدمـا أصغي اليهم على السمـاعـة يقـولـون : «آلو،فرانسوا يتحدث أو جاكلين تتكلم فاسألهم : «أي فرانســوا؟ وأيـة جاكلين؟» ليس هنـاك ما يزعجني اكثر وليس هناك ثمة ما هو اصعب من لعبة«الحزورات»الهاتفية «احزر من أنا؟»

لم يكن الصـوت الـذي سمعتـه هذا الصبـاح غريباً عني هذا كل ما كان بوسعي قولـه . كان صوتـاً نسـائيـاً خفيضاً دافئاً فيه شيء من البحة . انه صوت لا يتميـز بنبـرة خاصـة وذو القـاء اقـرب الى السـرعة لكنه واضح ومسموع جداً .

أجهـدت نفسي لفتـرة من الزمن لاعيد سماعه ذهنياً كي اتمكن من

حفـره جيـداً في ذاكـرتي ولكي استطيـع تقـريبـه الي الى اقصى حد ممكن، كنت احـاول تقليـده وكـررت الطلب لعـل نبـرة ذلك الصوت ستساعدني على المدى البعيد في ايقاظ ذاكرتي فجأة لمعرفة صورة أو وجه أو أسم ذلك الشخص، ولكن دون جدوى.

أُدعى جيـرار فوارول، أبلغ الثـانيـة والثـلاثين من العمـر وأعمل في قسم التوثيق لاحدى الصحف الاقتصادية، ويلقبني القسم الاعظم من اصدقائي ومعارفي بجيرار أو فوارول. والبعض منهم أو منهن يلقبني بـ «جيجي».إلا أني استمعت هذا الصبـاح بكـل تأكيـد الى كلمة «جي . في». ان هذا الاسم هوليس بلقب في حد ذاتـه ولا بكنيـة، لقـد كان مجـرد ادغـام صوتـي للحـرفيـن الاولين من أسمي وأسم عائلتي. وبـاختصـار فان تسميـة «جي.في» قد حصلت عليهـا خلال احـدى اجازاتي الصيفية الماضية.

كنـا قد غادرنـا الى جنـوب فرنسـا ليس بعيـداً عن السـاحل الصغير المسمى «سـاربيت» حيث كان لاحـدى رفيقـاتنـا في الصحيفـة حق التصـرف في فيـلا عائليـة كبيـرة لمـدة خمسـة عشـر يومـاً وإبان عملية تسجيـل النقـاط لدورة في كرة المنضـدة كنـا قد نظمنـاهـا في حديقـة المنزل رُمِزَ لاسمي على لوحة الاسماء برمز «جي . في» واني اتذكر ان إحدى فتيات مجموعتنا صرخت فجأة في نهاية الجزء الاول قائلة:

- جاء دورك يا جي . في ! لمواجهة جان بيير.

وكُلنا يعلم ان العادة تبدأ من الفعل الاول. وطيلة فترة مكوثي التي استمـرت خمسـة عشر يوماً كانوا يرددون اسم «جي . في» واستمر هذا

الاسم سائـراً، غيـر اني أعلم ايضـاً بانني كنت أدعى بهذه التسمية في عالـم «سـاريبيت» فحسب، ومـا زلت ألقّب بهـذه التسميـة وهـذا الأمـر يقـلص دائــرة بحـثي واستطيــع القـــول من خلال هذه الامــرأة التي استفسرت مني ومنحتني لقب «جي . في» اني اتذكر جيداً انها كانت تدعى ماري جو. لقـد رأيتهـا مراراً في باريس لدى عودتي من اجـازتي الـترويحيـة. انهـا بنت مرحـة طريفـة وسـريعة التأثر معروفة لاصحابنا بضحكـاتهـا الشـاقبـة المفـاجئة وغير المناسبة احياناً. كانت تعيش مع شاب بسيـط ولطيف نسيت اسمـه وكـانـا منـدمجين وتـزوجا منذ ذلك الحين ورزقـا بطفـلٍ وهم يقيمـون حالياً في مدينة تولوز. كانت تمتلك ماري-جو صوتاً حاداً ذا طبقة عالية مع لكنةٍ خفيفة تتميز بها مدينة تولوز. كلا لم يكن صوت ماري-جو الـذي كنت قد استمعت اليـه منـذ برهة، كمـا لا يمكن ان يكـون للأسف صوت تيـريـز لانهـا فارقت الحياة في الشتاء الفائت نتيجة لحادث سيارة على طريق فيكام. ولا حتى صوت فرانشيسكا التي تزوجت من مصور انجليزي وتعيش الآن في لندن.

وتسـاءلت فجأة: «ربمـا كانت سيلفي!»ربـاه، كانت فعلاً سيلفي! لماذا لم أفكر بها فوراً؟

وحين تذكـرت وجـه سيلفي الجميـل وعينيهـا الكحلاوين وشفتيها المكتنـزتين وصـوتهـا الحميم والخفيض المبحوح شعرت فجأة بضيق شديد وبهواجس كئيبة. ما الذي ألمّ بها؟ لماذا اتصلت بي أنا بالذات على حين غرة طالبـة النجـدة في الـوقت الـذي لم أكن قد رأيتهـا منـذ سنـوات عديـدة؟ وابســط ما يمكن قوله ان علاقتي بسيلفي كانت تتميز

منـذ البـدايـة بشيء من الاضطـراب، فلم أكن اعرفها قبل وصولي الى مدينــة «ســاربيت» وقــد بدأ كل شيء بيننــا بمـا يمكن أن أسميـه بـ «بمطـارحـة غرام خمـريّـة» وذلك لاننا وجدنا انفسنا في احدى الليالي سُكـارى تمـاماً ولا نعرف ما حدث بالضبط، كنا ممددين عاريين على أريكـة قابلة للتحـول الى سرير في الصالة الكبيرة للفيلا العائلية . ولم نحـاول فيمـا بعـد وحتى بعد عودتنا الى باريس تكرار هذه التجربة لان ذلك لم يكن ممكناً.

فسيلفي كانت فتـاة غريبـة الاطـوار بالنسبـة لي كما انها مكتئبة جداً وعنيفــة في الـوقت ذاتـه. وكنت بالنسبـة اليهـا رقيقـاً جداً وارغب في امتـلاكهـا، الا ان لقاءنا القصير هذا وطد بيننا روابط مرتبكة لكنها قوية الى حد ما.

وعنـدمـا لم تكن تقيم مع أجد عشاقها كانت تعود بملء ارادتها الى منـزل والـدهـا الأرمـل الـذي كان يمتلك بيتـاً كبيراً رمادياً في ضواحي باريس بالقـرب من حي «بـانيـو» والـذي كان قليلاً ما يتردد عليه. كنت اذهب لزيـارتها هنالك احيانا مع اصدقائنا خلال العطلات وكنا نقضي اوقـاتـاً ممتعـة في ذلـك البيت العتيق الـذي احبـه كثيـراً وفي حديقتـه الصغيرة المهملة المطرزة بالزنابق الهزيلة وممشاها الصدىء المغطى بالخضرة.

والآن وبعـد انْ قادتني افكـاري الى سيلفي بطـريقـة محـزنـة وغير متوقعة تكون لدي يقين تام مفاده ان : «سيلفي هي التي اتصلت بي . . فمن المؤكد ان الامر خطير وخطير جداً . . فهو ليس مجرد افكار سوداء

انـه احبـاط نفسي . . يا للعنـة ! . . انها في خطر . . انها تناديني . . ما الـذي يجب عمله؟ . . كيف سأجـدهـا؟ . . سيلفي . . شفتـاهـا المكتنزتان . . ويداها المنشنجتان . . » .

شعرت بالهلع ونهضت بقفزة واحدة من مقعدي في المطبخ وذهبت افتش باضطـراب في الادراج حيث احتفـظ لحسن الحـظ بدفـاتـر العنـاوين القـديمـة . لقد وجدت في مفكرة احدى تلك السنوات أرقام الهواتف المؤقتة كافة إذ بالامكان وبقليل من الحظ الاتصال بسيلفي . كانت هنـاك صفحـات كاملة من هذه العناوين ! تخص مكاتب وفنادق وشققـاً وحـانـات ورفـاقاً . . ولكن كان هناك ايضاً رقم هاتف الفيلا في بانيو. اتصلت في الحال مرتين وثلاثاً غير ان الخط كان مشغولاً . كان من شأن ذلـك ان يبعث الاطمئنـان انها ما تزال هناك سليمة حية ترزق وتستخـدم الهـاتف ، الا ان ذلـك زاد في قلقي ، لا بد انها ميتة أوعلى وشك الموت ولا قوة لها على غلق سماعة الهاتف .

كنت ارى بدقـة متنـاهية صديقتي سيلفي تحتضر على فراش اليأس تتلوى من الالـم شاحبـة ومنهـارة تتقيأ اقراصاً وحبوباً وتغرق في بحر من المرارة،اراها وهي ممددة على السجادة تزحف وتصرخ حتى تصل الى جهاز الهاتف المقلوب ، كنت اتخيلها ومعصماها مقطوعان بالشفرة وقد ملأ دمهـا مغطس الحمـام . ارتـديت ملابسي على عجل وأدرت قرص الهاتف على رقم بانيو مرات عديدة لكنه كان مشغولاً على الدوام !

«يا للعنة ، يا للعنة ! انها ميتة ! انها ستموت ! . . »

نزلت في سرعـة الاعصار من العمارة وركضت حتى سيارتي الواقفة

على الجهـــة اليمنى من الشـارع كمـا هي العـادة . اختـرقت بسـرعـة العـاصمـة النـائمـة الخـاليـة في صبـاح يوم الاحد وتجاوزت كالسهم المنطلق بوابـة أورليـان وأسـرعت نحو بانيو وسلكت الزقاق الصغير الى اليمين الـذي يلي مرأب سيـارات بيجـو وأوقفت السيارة على الرصيف أمـام بوابـة المنـزل المقفلة وقـرعت الجـرس دون ان أتلقى جواباً . ما العمل؟ ما العمل؟ كان علي التصرف باقصى سرعة . وبينما كنت اتهيأ لتسلق البـوابـة وأنـا مصمم على اقتحام باب المنزل شاهدت المغالق المعدنية لاحدى نوافذ الطابق الاول تنفتح ورأيت السيد فرانجيبه يظهر بنفسه ببيجامته المخططة وشعره المشعّث وهو غير صاح تماماً ، انه والد سيلفي الـذي لم يتمكن من التعـرف علي في البداية ، وسألني بطريقة جافة مثلما كنت اتوقع منه ، فأجبته باضطراب قائلاً :

ـ أنا جيرار فوازول أحد اصدقاء سيلفي . هل هي موجودة؟ .يبدو انها لم تكن هنـاك كمـا أن والـدهـا لم يكن مهتماً بمحل وجودها في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح.وقلت له ثانية :

ـ يجب ان اتحـدث اليـك ، هل بوسعي الـدخـول لخمس دقائق؟ فلم يجبني وأغلق نافـذتـه غيـر أنـه ظهر بعد قليل على المدخل وهو يرتدي رداء النـوم وخفـاً منـزليـاً ويمسـك بيده مجموعة من المفاتيح ونزل كي يفتـح لي البـوابـة . صافحني ببـرود وأدخلني الى المطبـخ الكائن في الطابق الارضي .

كان رجـلاً ضخمـاً وطـويـلاً في الستين من العمـر ووجهـه جميـل المـلامـح رغم تقـدمـه في السن يُغطي رأسه شعر ابيض كثيف . كنت

التقيه احياناً عندما كنا نأتي لزيارة سيلفي الا أني لا أستطيع القول اننا كنـا نكن لبعضنـا عواطف متبـادلـة ، ونـادراً ما تكـون لي علاقات طيبة وحارة مع آباء زميلاتي . ودعاني قائلاً : «هل ترغب في فنجان قهوة؟»

وكـان قد قام بتشغيـل جهـاز إعـداد القهوة الكهربائي فأخرج بعض الفناجين وبعض الصحون الصغيرة من خزانة زاهية بيضاء . ادار ظهره لي وبقي صامتـاً ومن المؤكـد انـه كان يوجه لنفسه بعض الأسئلة حول اسبـاب زيـارتي غيـر الـلائقـة ولكنني كنت مدركاً بما فيه الكفاية أنه لن يوجـه لي أي سؤال . كان يُفتـرض بي ان أتكلم ولم يكن الامـر سهـلاً فقررت ان أتشجّع وابادره قائلاً :

ـ انني قلق جداً . يجب الاتصال بسيلفي باقرب وقت ممكن .

استدار نحوي ببطء وهو يحمل ابريق القهوة وألقى علي نظرة ملؤها الشـك ، فلم يكن ليـرى تصرفي واضحاً بل كان يضمر شيئاً من الشر . وأخيراً سألني :

ـ ما سبب قلقك؟

واضطررت ان اشرح له على عجالة كيف تلقيت منذ ساعة مكالمة الاستغـاثـة المجهـولـة وكيف أيقنت انهـا كانت تخص سيلفي وكيف حاولت الاتصال بها فوراً ولماذا أتيت مذعوراً الى هنا .

كنـت اتحـدث تدريجيـاً محـاولاً قدر الامكـان أن ابين له قلقي الشخصي وبطريقة تجعلني ادرك الآن أنني كنت أرمي بهمومي نحوه . .

ونفـد صبـري ! فقد تركني السيد فرانجييه أتحدث دون ان يقاطعني

وهو يملأ فنجاني بالقهوة .

ـ هل تريد قليلاً من السكر؟ قال لي ذلك فقط مشيراً بذقنه الى موضع علبة السكر، ثم جلس في مواجهتي وبدأ يشرح لي بصوت هادىء انه كان يرفع سماعة الهاتف مساء كل يوم عندما يكون نائماً في بانيولا لانه لم يكن يريد ان يزعجه أحد من زملاء ابنته خلال الليل أويوقظه في الفجر وبخاصة أيام الآحاد. وحسب رأيه فان ابنته كانت تتمتع بصحة جيدة آنذاك .

كانت تعيش منذ اكثر من عام قصة «حب رائعة» مع رسام شاب «بارز» يدعى باتريك هوشت الذي كانت تقيم معه . وكانا يقضيان عطلات نهاية الاسبوع لدى اصدقائهما في الريف بالقرب من مدينة فونتينبلو حيث هما هناك الآن . كان السيد فرانجييه يعرف أين هما ولكنه ما كان ليفصح عن مكان وجودهما لأن الأمر لا يعنيه .

وخلص السيد فرانجييه الى القول بالنبرة الهادئة ذاتها :

«لعل سيلفي تمزح معك وهذا أمر مستبعد بحسب اعتقادي أولم تكن هي التي اتصلت بك هاتفياً» .

كان في حديثه منطق وثقة جعلاني أقف أمامه مشدوهاً ، وفي صميم اعماقي لم أكن أطلب أكثر من أن أكون مطمئناً ولكني لا أدري لماذا لم أكن مقتنعاً تماماً برأي السيد فرانجييه الذي لم يتأثر بشكوكي . فقلت مجدداً بنبرة مرتبكة :

ـ لنفترض بانني على خطأ ولكن حين يكون هناك احتمال واحد الى عشرة ألا تعتقد بضرورة القيام بمحاولة على الفور؟ . .

قاطعني بخشونة قائلاً :

- ستتصل بي سيلفي بالتأكيد خلال فترة وجيزة وسأطلب اليها ان تتصل بك. اترك لي رقم هاتفك .

لم يتبق أمامي سوى اختزال زيارتي والاعتذار لتطفلي ومن ثم العودة الى منزلي .

كنت احاول جاهداً ان أبعد عن مخيلتي الصور المُعَذِّبة لسيلفي التي ما برحت تهاجمني منذ الصباح، الا أنني كنت أجد نفسي في مواجهة سؤال كان يزيد من قلقي كلما مرت الساعات وهو: اذا لم تكن المتحدثة سيلفي فمن تكون اذاً؟

ومن التي ايقظتني بالهاتف هذا الصباح؟ من التي طلبت الي النجدة وهي تبكي بصوت متحشرج؟

أمضيت نهاراً رهيباً أضع فيه ما هو محتمل من الفرضيات وما هو الأبعد احتمالاً منها وذهبت في تصوراتي الى حد أني تخيلت والدتي البالغة الثانية والستين من العمر وهي تزحف باتجاه كابينة الهاتف عارية مضرجة بالدماء على طريق ريفية ضيقة في الساعات الاولى من الفجر. كنت أرى وأسمع اختي غير الشقيقة «انينا» يعذبها ويغتصبها رجال يرتدون أردية بيضاء كأردية القساوسة في صحراء رملية. كنت اتذكر صرخات العذاب والاحتضار لفيرونيك المتفحمة تحت انظاري في سيارتي المهشمة تحت تلك الشاحنة . .ولكن على الرغم مني كانت صورة سيلفي المعذبة تمثُلُ أمامي دوماً وهي ممددة على بساطها ترتدي قميص الحمام الذي اصطبغ باللون الاحمر ورأسها ممدد

الى الوراء وعيناها شاخصتان مفتوحتان وذلك الهاتف المقلوب .

ولكي أطـرد الاوهـام من رأسي بقيت حتى الظهيـرة أرغم نفسي على البحث في ذاكـرتي وفي مفكـرتي لعلني استدل على امرأة شابة وحيدة يائسـة ذات صوت دافىء وخفيض قد تلقبني بـ «جي . في» أو «جي . جي» في أقصى احتمال .

اتصلت هاتفياً بعدد كبير من رفيقاتي في الصحيفة واكثرهن لم يكنَّ في منـازلهن أمـا الاخريات فقد فوجئن بمكالمتي والبعض تساءلن عن أهمية الامر الذي دعاني للاتصال بهن في منزلهن صباح يوم الاحد .
أجريت مكالمة هاتفية مع صديقتي المدعوة «جميلة» ذات الصوت الـرخيم الـدافىء والخفيض والتي اقتـرحت علي أن اتناول معها طعام الغذاء . كما اتصلت «بفرنشيسكا» في لندن التي اعتقدت في لحظة ما بانني كنت قد قدمت الى انكلتـرا . اتصلت ايضـاً بابنـة عمي «فابيان» التي لم أكن لاراهـا الا لمـاماً . واستفسرت منها فيما اذا كان قد حصل مكـروه لأحـد اصـدقاء طفولتنا . وأخيراً اتصلت «بماري جو» في مدينة تولوز التي انفجرت ضاحكة عندما اخبرتها بمشكلتي وبحيرتي .
حدثتني قائلة :
- انها نكتة . بالتأكيد نكتة ! انت تحاول دائماً ان تزعج الناس بقصص الانتحار هذه !

كنت احاول جاهداً التمسك والتشبث بهذا الافتراض الباعث على الارتياح غير انني لم أتمكن من الركون اليه .

قضيت النهار كله وأنا أدور في حلقة مفرغة داخل شقتي.كنت عاجزاً وخائر القوى وضعيفاً أشعر بالذنب أمام هذه المأساة التي لم أكن أعرف ما هي على وجه التحديد. ولم أكن لأتجرأ على الخروج خشية ان تضيع مني مكالمة ما. آه! لو كانت مارتين موجودة هنا! لعرفت كيف تساعدني وتطمئنني، ولتمكنت من ايجاد التفسير أو الدليل أو العنوان. لكنها لم تكن موجودة كانت تعد «ريبورتاجا» في المانيا وكما جرت العادة، لم أكن على علم بكيفية الاتصال بها. . ربما ستتصل بي هاتفياً هذا المساء. . ربما . . وسأتعرف على صوتها. . فعندما تتصل بالهاتف تقول دائماً: «هذه أنا» كما لو كان الأمر بديهياً. وأنا أعرف انها هي لأني أحبها.

وفي وقت متأخر من الليل وبغية الترويح عن نفسي شاهدت ملخصاً تلفزيونياً عن مباراة بكرة القدم فاز فريق ستراسبورغ في باستيا بهدفين مقابل هدف واحد. رنّ جرس الهاتف ولم تكن مارتين بل السيد فرانجييه والد سيلفي. كان ينتحبُ وهو يتحدث اليّ من مستشفى كوشات حيث نُقلت ابنته الى غرفة الانعاش ولكن بعد فوات الاوان لسوء الحظ.

علمت فيما بعد بالظروف الدقيقة للمأساة. فعند عودة المدعو باتريك هوشت من الريف حيث كان لوحده صباح يوم السبت اكتشف في مشغله الفني وعلى البساط جثة «سيلفي» الهامدة وهي عارية وقد لُفتْ بشكل عشوائي بقميص الحمام الابيض المضرج بالدماء وكان معصماها مقطوعين بالشفرة، كانت آثار الدماء تقودنا الى الحمام

الملطخة بكافة اجزائها. كان الماء في المغطس أحمر اللون وعلى الرف الصغير المثبت فوق المغسلة هناك قنينة من المهدئات ثلاثة ارباعها فارغة.

وحسب رأي الاطباء في مستشفى كوشان فان سيلفي فرانجييه فارقت الحياة في الساعات الاولى من صباح يوم الأحد. الّا أنَّ الذي كدرني اكثر من أي شيء آخر وما يزال يحزُّ في نفسي حتى اليوم وبعد مرور كل هذه السنين الطوال هو أن مشغل باتريك هوشت ما كان ليحوي جهاز هاتف قط.

الطفلة الصينية

سافرت يوم الاحد من ذلك الاسبوع بأول رحلة جوية تغادر فيها الطائرة بعد الظهر.

كان هناك العديد من الاماكن الخالية داخل الطائرة فجلست بالقرب من المؤخرة خلف الجناح الأيمن بطريقة تجعلني أرى من خلال النافذة، وطيلة فترة الرحلة طرف الجناح وهو يهتز ويتوازن في سماء زرقاء فوق البحر اولاً ومن ثم فوق جبال الالب المكسوة بالثلج وهذا هو ما أحب. وكم من المرات قمت بمثل هذه الرحلة سابقاً! ولكني اشعر بسعادة غامرة في كل مرة. وضعت صحفي وسكائري على المقعد الشاغر المجاور لي وكنت مرتاحاً. وبعض المسافرين ما يزالون يلجون في داخل الطائرة ويختارون مقاعدهم كمن يختار نهايته بخشية وحذر.

«هنا يقُطع رأسي بشفرة المروحة الدوارة» «وهنا أموت متفحماً» «وهنا اقذف من الطائرة خلال طيرانها وأسقط مهشماً على الارض».

كانت مضيفـات الشـركـة يرتدين زيهن الصيفي وهن يقطعن الممر الـوسطي ذهـابـاً وايـابـاً ليتفحصن الامكنة ويراقبن كل شيء ويبتسمن للجميع .

أغلقت الابـواب جميعهـا واستمعت بوضوح الى أصوات محركات الطـائـرة الاربعـة وهي تدور الواحدة تلو الاخرى ببطء بحثاً عن ايقاعها المتنـاسق وتسخن استعداداً للانطلاق، وفوق رؤوسنا أُضيئت مصابيح الارشـــاد تطلب منـــا ربـــط الاحـــزمـــة والكف عن التـدخين . بدأت المحركات الاربعة تدور بقوة وأخذت الطائرة تسير على المدرج بسرعة دراجة هوائية .

رأيتها تترك مقعدها الكائن في المقدمة وتسير بخطى غير مكترثة ومن ثم توقفت أمامي والقت عليّ نظرة فاحصة وقالت :

- أريد الجلوس بجانبك .

وابتسمت لي ابتســامــة ماكـرة وهي اشبـه بـ «معجـزة صغيـرة» تبلغ الخامسة أو السادسة من العمر، صينية أو فيتنامية الاصل وجهها مدّور ووجنتـاهـا ذهبيتـان جميلتـان وعينـاهـا سوداوان مشـدودتـا الاطراف ، وشعـرهـا أسـود مقصـوص بصورة مستقيمة على جبهتها ، لها ضفيرتان مجـدولتـان ومـربـوطتـان باشـرطة ملونة وترتدي فستاناً قطنياً بسيطاً فيه مربعات بيض وحمر.

رفعت صحفي وسكائري دون أن أتفوه بكلمة فجلست على المقعد الخالي بجانبي وهي تأرجح قدميها في الفراغ .

كانت الطـائـرة ما تزال تسيـر ببطء على المدرج . وسرعان ما جاءت

احدى المضيفات وتحدثت بصوت قاس قائلة :

ـ ماذا تفعلين هنا؟ لقد منعتك من التحرك. عليَّ أن أربطك الآن، لا تتحركي هذه المرة ابداً.

ومـالت نحـو البنت الصغيـرة فربطت بعنـايـة حزام الامان. رمقتني بعينيهـا الـرماديتين بنظرة متواطئة وساحرة في الوقت ذاته وقالت بصوت فيه شعور مصطنع بالذنب :

ـ المعذرة يا سيدي، هذه الطفلة لا تُحتمل!

ثم عادت الى مكانها في مؤخرة الطائرة.

وصلت الطائرة الى نقطة الانطلاق عند نهاية مدرج الاقلاع وبدأت المحركات الاربع تعمل بكامل طاقتها فأخذ داخل الطائرة المسمرة في الارض يهتز من السعادة، وقالت لي الطفلة :

ـ انا لست من اللائي لا يُحتملن، هذه المضيفة تزعجني دوماً!

وضعت يدها في يدي على المسند وأراحت رأسها على ذراعي :

ـ لقـد عرفتـك فور دخولك.. قالت ذلك لحظة رفع الطيار الضغط عن كوابح الطائرة فانطلقت على المدرج تهدر كالزوبعة. بدا لي ان أحد المحـركـات كان يعمـل بطريقة غير اعتيادية وان الطائرة تميل الى جهة اليمين، وبدأت تسرع وكنا ملتصقين بمساند مقاعدنا.

كنت أنظر بحنان الى جارتي الصغيرة وأنا متأكد بأني لم أرها من قبل في اي مكان قط. سألتها ضاحكاً :

ـ باختصار، هل تحاولين إيقاعي في حبائلك؟

ـ بالتأكيد، لانك كنت والدي هناك!

أخذت يدي من المسند وقربتها من وجهها وطبعت عليها قبلة . وفي اللحظـة التي كنت اعتقـد فيهـا ان الطـائـرة في طريقهـا الى الاقـلاع خفضت سرعتها فجأة وأخرجت كوابحها الهوائية وتابعت مسيرتها وهي تخفض سرعتهـا حتى النهـايـة الاخرى لمدرج الاقلاع . تجمدت في محلهـا بشـدة بدون عنف الا ان الجنـاحين استمـرا بالارتجاف كما لو كانت قد اصيبت برعب نتيجة هذا الاقلاع الفاشل .

- أنت لا تعرف أمي الجديدة ولكنك ستراها ، انها أجمل مني .

- ليس هناك من هو أجمل منك .

لقـد خلق هذا العطب البسيـط للطـائـرة جواً من التـوتر بين الركاب حيث كان كل واحـد منهم يريـد معـرفة ما حدث . وبعضهم فك حزام الامان وغادر مكانه . وقامت المضيفات بأجلاسهم مجدداً وكنَّ يقطعن الممـر الـوسطي للطائرة ذهاباً وجيئة في محاولة لتهدئة الخواطر وتفادي أي شكل من اشكال الهلع . ولكن المرء كان يشعر من خلال أصواتهن وايمـاءاتهن ان الخـوف قد أخـذ منهن مأخـذاً هنّ ايضاً ، وبينما بقيت احداهن تراقبنا دخلت الاخرى خلسة الى غرفة القيادة .

وتابعت الصغيرة قائلة :

- خطيبتك على الساحل كانت قد رمت كرتي .

- ولكن عن أي ساحل وأية خطيبة تتحدثين؟

- ألم تعد تتذكر !! كانت تدعى كلودين ، انه لاسم قبيح .

- وانت ما أسمك؟

- يا للعجب ، انـك لم تعـد تعـرف حتى اسم ابنتك! انه لشي غريب!

اسمي انجلين ولكنك كنت تدعوني بـ «لين» دائماً في البيت، بالتأكيد لكوني صينية!

أبلغنـا قائـد الطـائرة بواسطة الهاتف الداخلي اننا سنعود الى النقطة (ب ٧) بغيـة اجـراء فحص فني سريـع، وقـدم لنا بالنيابة اعتذار شركة الطيران عن هذا التأخير وطمأننا بانه ليس هناك ما يدعونا للقلق.

لقــد استغــرق هذا «الفحص الفني الســريــع» اكثـر من خمس ساعات، إذ نُقلنا مع حقائبنا اليدوية الى احدى صالات المطار وقدموا الينا أخيراً عصير البرتقال ومن ثم الشاي واللبن وبعض الحلوى وبعدها شطائر محشوة وقليل من الجعّة.

ويبـدو ان هذا التأخيـر غيـر المتـوقـع قد تسبب في نتـائج لا تحُمد عقبـاها بالنسبة للحياة المهنية والخاصة لبعض المسافرين وكان الكثير منهم ينـاقش امكـانيـة الغـاء رحلتهم أونقلهم الى رحـلات أخـرى أو شركات طيران أخرى. أخذت مجموعة المسافرين تتقلص شيئاً فشيئاً وكـانت المضيفـات منشغـلات بأعمـال اضطـرارية شتى، كنَّ يذهبن ويجئن والعرق يتصبب من ثيابهن الخفيفة. لقد تخلصن بشكل كامل من مسألــة الاهتمــام بالطفلة الصينيــة التي يفتــرض ان تكــون من مسؤوليتهن وتركوا لي أمرها، وقضيت معها ظهيرة لذيذة.

عنـد مغـادرتنا الطائرة استعادت انجلين مع حقيبة سفرها دمية من القمـاش كانت قد تركتهـا على مقعـدهـا الاصلي قبـل ان تجلس الى جانبي ولم تكن هنــاك ايـة مشكلة لان الـدميـة مصنـوعـة من قمـاش الفستـان القطني ذي المـربعـات الحمـر والبيض الـذي كانت ترتـديه الطفلة.

قالت لي :

- عليّ استعادة ابنتي فاني لن اتخلى عنها كما فعلت أنت!

لقد استمرت انجلين طوال ساعات الظهيرة في اكمال مشروعها لاجتذابي اذ تمكنت بفطنتها ان تجعلني استسلم لجاذبيتها ولثرثرتها دون ان أشعر بمرور الوقت.

كنا نجلس سوية نتناول الطعام الذي قدمته شركة الطيران على مقعد مخملي أزرق منعزل بعض الشيء وأمامنا مائدة واطئة. لقد اعطتني وهي تضحك الدرس الاول في اللغة الصينية وعلمتني كيف أقول الجمل التالية باللغة الصينية: «اسمي انجلين» وأنا ولدت في كرون تيغ و«أحبك» . وفي دفترها المدرسي الذي كنا قد أخرجناه سوية من حقيبة سفرها أوضحت لي كيفية الكتابة أو بالاحرى كيفية الرسم والرموز الدالة التي تمثل الولد والبنت والمنزل والحصان والبحر والقارب والكرة والساحل. .

كان اكثر ما يزعجني تكرارها باستمرار القول الآتي :

«لم تعد تتذكر ! ونسيت !» وهي تربط ذلك بصور وذكريات حياة أخرى كانت هي فيها ابنتي وأنا والدها واننا نعيش سوية مع امرأة تدعى كلودين في منزل أبيض كبير يطل على البحر.

بعض المسافرات والمسافرين كانوا ينظرون إليّ شزراً، أقرأ في عيونهم قولهم: «ماذا يريد هذا الدون جوان العجوز من هذه اللوليتا؟» . وعندما طلبت مني الصغيرة - وهو أمر معتاد - مرافقتها الى المرافق الصحية حيث اضطررنا الى قطع صالة الانتظار التي وضعنا

فيها يداً بيد قد يكون أمراً غير مستبعد لو نُعتُّ بالشبق .

كان يبـدو علينـا في الـوقت ذاتـه المـرح والسعـادة وهـذه جعلت الآخرين يحسدون لقاءنا المعجزة. أحدى المسافرات الامريكيات لم تستطع مقاومة رغبتها في تصويرنا نحن الاثنين معاً بآلة التصوير الفورية الملونة وقدمت لكل منا صورة تذكارية زاهية لاستراحتنا القصيرة .

وسـرعـان ما انتزعت منا المضيفة لحظات السعادة هذه واعادتنا الى طائـرتنـا التي أقلعت هذه المـرة دون مشـاكـل وأقلتنـا بسرعة الى مطار اورلي الجنـوبي . كان الليـل قد أسـدل ستـاره على المنطقة الباريسية والبنت الصغيرة نائمة على المقعد المجاور.

كانـوا بانتظـارنـا في المطار كما لو كنا من الناجين الابطال من كارثة لأعـرف كنهـهـا! عمليتـا اقـلاع وست ساعـات من التأخيـر لطـريق لا تستغـرق اكثـر من خمس وستين دقيقـة. كان شيئـا كثيـراً! واعتقـد ان المعلومـات الاكثـر تضليـلاً قد انتشـرت حول ملحمتنـا بين الاهـالي والاصـدقـاء الـذين قضوا يوم الأحد بكامله في انتظار طائرتنا مع كل ما ينجم عن ذلك من ترقب ومن ضياع في الوقت نتيجة الرواح والمجيء والمكالمات الهاتفية المقلقة .

وما أن تجاوزنا بوابة خروج المسافرين حتى ركضت امرأة شابة نحو البنت الصغيـرة التي كنت ممسكـاً بيدها وركعت أمامها واحتضنتها بين ذراعيها واغرقتها بسيل من القبل وهي تسألها حبيبتي ! حبيبتي ! ها أنت هنا! هل كانت الرحلة على ما يرام؟ ألم تشعري بخوف؟

كان صوتها يرتجف والدموع تترقرق في عينيها . كانت سيدة قصيرة

القامة تامة الاناقة وذات جمال آسيوي رائع غير أني لاحظت ان بشرة وجهها تالفة بعض الشيء رغم الجهد المبذول في تزيينها، وكانت ترتدي بدلة حريرية فاتحة اللون شديدة الاناقة مع كثير من الحلي وحقيبة وحذاء مصنوعتين من جلد التمساح. وخلال هذا الدفق العاطفي غير اللائق أو المبالغ فيه على الاقل والذي كانت تتابعه المضيفة بتعاطف لم تترك انجلين يدي وهي تنظر اليّ بعين ماكرة ومتواطئة في الوقت ذاته ويبدو عليها وكأنها تقول «ما الذي جرى لها؟» «ألم ترني من قبل؟ انها ليست المرة الاولى التي استقل فيها الطائرة!»

واخيراً نهضت السيدة الشابة وأخذت تذاكر الرحلة التي اعطتها اياها المضيفة وبدت أنها شعرت فجأة بوجودي فابتسمت ابتسامة ساحرة وشكرتني بسرعة على «لطفي لاهتمامي بالطفلة الصغيرة» وكانت قد استردت حقيبة سفر انجلين التي حملتها مع حقيبتي الخاصة والدمية المصنوعة من القماش ذي المربعات.

- هيا انجلين قولي للسيد الى اللقاء فالسيارة بانتظارنا.

لم تنفذ انجلين رغبتها فلم تكن تريد ان تفارقني ولم تكن تريد ان افارقها انها ترغب في اصطحابي «الى البيت» لهذه الليلة أو على أقل تقدير لغاية الأحد.

كانت ملتصقة بي وعلى وشك البكاء.

قالت المرأة الشابة بنبرة حادة مفاجئة:

- انجلين لا تكوني غبية، ان للسيد بالتأكيد شيئاً آخر يفعله. ودّعيه ولنذهب!

أمسكتْ بيـدهـا وحـاولتَ ان تصطخبهـا معهـا فانفجـرت الصغيرة بالبكاء ورمت بنفسها بين ذراعي وصرخت قائلة :

ـ لا تتركني ! لا تتركني !

لقـد تأثرت كثيراً لصراخها الشديد المخلص والعنيف وأنا في حرج لا أعـرف كيف أرد على هذا المقـدار من الحب أمـام هذه السيـدة الجميلة والجـادة التي بدأت ترمقني بنظـرات عتـاب ولنقـل ، بنظرات عداء واضحة .

اضطـررنـا للتفـاهم كاشخـاص ناضجين من فوق رأس الصغيـرة . قالت السيدة فجأة وهي تغير سياستها :

ـ اذا بقيت عاقلة فان السيـد سيأتي لزيـارتنـا في البيت ، هل فكرت ان تتـركي له عنـوانـك؟ ورقم هاتفـك؟ انجلين لم تفكر بذلك . ولِمَ؟ لقد كانت متأكـدة منـذ الـوهلة الاولى التي «استعادتني» فيها اننا لن نفترق مطلقاً ولكنني لم أكن أعرف حتى اسم عائلتها .

أخـرجت السيـدة «لي فان تو» من حقيبتهـا المصنـوعـة من جلد التمسـاح بطـاقة زيارة مكتوب عليها عنوانها باللغتين الصينية والفرنسية وقدمتها لي ، فهي تقيم في الدائرة الثامنة في باريس (٧٦) شارع لابيروز .

لقـد وعـدت بالاتصـال هاتفيـاً ظهيـرة اليوم التالي . وبينما كنا على وشـك الافتـراق وبعـد هذه المسـاومـة المرضية تقريباً وضعت انجلين شرطاً جديداً ، فقالت لي على حين غرة :

ـ بوسعنـا نقلك معنـا على الاقـل الى باريس لاننـا نمتلك سيارة . هل

تسكن في باريس ايضاً؟

لقد كنت غير مرتاح، وعليّ الآن أن أختلق الاعذار للهروب:

ـ في الحقيقة انا لست ذاهباً الى وجهتكم وعليّ انتظار حقائبي.

كانت هذه أكذوبة مزدوجة: بما انني قد قدمت لقضاء يومين في باريس فليس لي ثمة حقائب غير الحقيبة اليدوية الجلدية الصغيرة التي كنت احملها وبما انني كنت سأقيم في الفندق على اية حال فقد كان بوسعي مرافقتها مثلاً الى جانب «الايتوال» في ميدان قوس النصر.

وتدخلت السيدة لي فان تو في تلك اللحظة لكي تضع حداً للنقاش.

ـ اسمح لنا يا سيدي اذن ان نغادر فقد تأخرنا كثيراً بسبب هذه الطائرة..

رمت انجلين بنفسها مرة أخرى بين أحضاني وانفجرت بالبكاء وهي تقول:

ـ لا تتركني! لا تتركني! واضافت بنبرة يائسة:

أنا لا أحب هذه السيدة! حينئذ قررت «هذه السيدة» التي لن انساها ابداً ان تستخدم القوة فأمسكت البنت الصغيرة من ذراعها وضغطت عليها بعنف وانتزعتها مني وسحبتها الى مدخل موقف السيارات، وظللت للحظات دون حراك أتابعهما بنظري بين المسافرين الذين كانوا يقطعون صالة المطار ذهاباً واياباً. استدارت انجلين نحوي للمرة الاخيرة وأرسلت لي قبلة بيدها بحركة ظريفة. كانت تحاول جاهدة ان تبتسم من خلال دموعها وتبدو لي وكأنها تصرخ قائلة:

ـ تعال غداً! هذا وعد منك!

هل بالامكـان مقـاومـة مثـل هذا النداء المتدفق بالحب؟ ألم يكن واجباً العدو فوراً نحو الصغيرة وإمساكها من يدها وعدم تركها تبتعد قيد شعرة؟

لم يكن لدي ما هو أفضـل كي اعمله وكـانت ستكـون سعيـدة وأنـا كذلـك. توجهت دون عجـل نحـو شباك تسلم الحقائب. وكان بعض مسـافـري طائرتنا ينتظرون وهم مصطفون بهدوء على شكل دائرة حول حزام الحقـائب الدوار. صادفتني مضيفتي طائرتنا وهما تحثان الخطى نحـو باب الخـروج. انتظـرت برهـة وصـول الحقائب ثم توجهت الى الصـالـة وبقيت أدور في محلي وبغية كسب او إضاعة قليل من الوقت. ذهبت لاتكلم من مقصورة الهاتف مع فندق «لوتيل دولا فنو» الكائن في شارع مونبـارنـاس حيث كنت أقيم احيـانـاً لكي أتـاكـد من وجود غرفة شاغرة. واخيراً غادرت المطار واستقليت سيارة أجرة الى باريس.

فُتـح باب غرفتي دون أيـة ضوضـاء وتقـدم شخصان يرتديان بدلتين فاتحتين وربطة عنق ووقفا أمامي حيث قدمهما لي أحد مستخدمي الفندق.

لم يكن الـوقت مبكـراً جداً لانني كنت قد تنـاولت افطـاري وطلبت صحيفـة الصبـاح والسيكـائـر وأكملت شرب القهوة وأنا أقرأ بشرود في صحيفـة الفيجـارو ليـوم الاثنين: سعر الدولار قد حقق قفزة الى الامام كمـا حدثت عمليـة سطـو دمـويـة ليلة الأحـد على أحـد محـلات المجوهرات في مدينة «كان» وتمكن فريق الركبي الفرنسي من التغلب

على الفريق النيوزيلندي .

سألني أحد الرجلين قائلاً :

ـ أنت فرانسوا مونيستييه ؟

الشيء الاول الذي خطر في بالي ان رجال الشرطة يتقنون عملهم ! كيف عرف هذان السيدان انني أقيم في الغرفة رقم (١٧) في فندق لوتيل دولافنو في مونبارناس؟ وبعد لحظات سألت نفسي لماذا بحق الشيطان تأتون لرؤيتي في هذه الساعة من الصباح؟ . ولم يعطوني أي جواب دقيق بخصوص هذه النقطة وطلبوا مني أن أرتدي ثيابي وأتبعهم «بطيبة خاطر» .

لقد درست كما يفعل الجميع كتابي الوجيز الخاص بحقوق وواجبات المواطن أمام الشرطة ، واني أعلم انه يحق من الناحية النظرية لكل شخص ان يطالب بذلك ويتأكد منه ، إلا اني أعلم ايضاً انه عملياً يفعل المواطن ما يُطلب اليه . .

وهكذا ارتديت ملابسي وتبعتهم .

كانت هناك سيارة كبيرة سوداء بانتظارنا تحت الفندق وهي واقفة بصورة غير قانونية في الممر المخصص للحافلات .

أحد هذين الرجلين جلس في المقعد الامامي قرب السائق بينما أجلسني الثاني على المقعد الخلفي بجانبه .

ولا ادري لماذا كنت مقتنعاً باننا سنمر من شارع سان ميشيل وحتى مركز الشرطة غير ان السيارة اتجهت يساراً باتجاه منطقة «ليزأنفاليد» . شعرت فوراً بقلق مفاجيء وشديد ينتابني ، لم أكن أعدُّ نفسي ابن بركة

وخطر ببالي أنني اعيش مجدداً حالة اختطاف القائد المغربي.
سألتهم بصوت هادىء وحازم:
- الى اين نحن ذاهبون؟.
أجابني جاري الذي يجلس بجانبي:
- نحن ذاهبون الى شارع ديه سوسيه.
ولم أسألهما لكي أشعر بالاطمئنان، لاني كنت أجهل حينذاك الهيكل التنظيمي للشرطة الباريسية، ولم يكن شارع ديه سوسيه والمخابرات العامة والدفاع تعني شيئاً بالنسبة لي. وفي مخيلتي - والله وحده يعلم كيف - وجدت نفسي متورطاً في قضية خطيرة وقد تكون قضية تجسس تدخل فيها شخصيات اجنبية..
كانت السيارة تسير مسرعة ولكنها كانت تحترم تقريباً العلامات المرورية، وبالتأكيد بدأت أشعر بالهلع يدب في أوصالي ببطء وقررت أن أقطع الصمت الذي أصبح مضايقاً فسألت:
- هل بوسعي التدخين؟ لقد طلبت ذلك وانا أخرج علبة سكائري.
- تفضل.
كان المفتش لطيفاً جداً حيث وصل به الأمر ان يشعل سيكارتي بولاعته الخاصة وأشار الى منفضة السجائر تحت مقبض الباب.
كنت أكرر في ذهني الآتي: «أنا لست موقوفاً أو متهماً ربما الأمر يتعلق دون شك ببعض التحقيقات ولكن لماذا أنا بالذات؟ ماذا يريدون مني بالضبط؟»
عبرنا نهر السين واقتربنا من شارع الشانزيليزيه ويبدو ان اليوم

سيكـون جميـلاً فبـاريس كانت تظهـر بحلة العيـد والعطلات . وكانت بعض الشـابـات اللواتي يرتدين فساتين الصيف ينتظرن وهن جالسات على السلم افتتاح القصر الكبير.

لم تكن لدي ادنى رغبـة في قضـاء يومي في مكـاتب الشـرطة لاني كنت أتأمـل رؤيـة صديقتي الصينية الصغيرة خلال فترة الظهيرة وأتمنى الا يضيعوا مني هذه الفرصة.

ثم وجهت سؤالاً آخر الى مفتش الشرطة :

ـ هل انتم متأكدون من أني الشخص المقصود فعلًا؟ فهناك الكثير من الناس يحمل لقب (مونستييه) .

فقاطعني بشي من الجفاء قائلاً :

ـ سنعرف ذلك حالاً .

وصلنا الى بناية سوداء في شارع صغير ومظلم ولم يكن هناك ما يشير الى وجود مخفر للشرطة. طلبوا مني النزول من السيارة وامروني باجتياز البـوابـة الـرئيسـة ومن ثم اجتـزت باباً زجاجيةً. وأصعدوني الى الطابق الاول بسلم كبيـر مغطى ببسـاط أحمـر متهـرىء بعض الشيء ومن ثم فتحـوا إحـدى الشقق وطلبـوا مني الجلوس على مقعـد جلدي مثقب موجود في الرواق.

وبينما بقي أحد الرجلين معي في هذا الدهليز (وهو الشخص الذي كان جالسـاً الى جنب السـائق) توجـه الآخـر (أي الشخص الذي كان يبادلني الحديث)الى احدى الغرف واغلق الباب خلفه.

لم أكن أحس فعـلًا بالخطـر ولكن إنتابني شعور بالضيق لأن تهديداً

خطيراً بدأ يخيم فجأة على حياتي . والأمر الاكثر ايلاماً هو عدم معرفتي كُنه هذا التهديد وبخاصة ما كان يخبئه القدر المحتوم.

كنت في حينها عزباً ولا أطفال لي وليست لدي مغامرات صاخبة، أكسب عيشي من عملي في قسم الحسابات لأحدى مؤسسات الحاسبات الالكترونية الكائنة في مقاطعة «كوت دازور» كنت أدفع ضرائبي بانتظام عن طريق استقطاع شهري يجري على حسابي في مصرف باريس الوطني ولم أكن أمارس اعمال المضاربة العقارية ولا تهريب المخدرات كما لم تكن لدي ديون قمار ولا انتمي الى أية منظمة ارهابية. ولا اذكر قط انني دهست بسيارتي أحد رجال الشرطة وهربت . . الا إذا كانت السيارة قد سرقت مني ليلة سفري في المطار واستخدمت في عملية السطو الدموية على محل المجوهرات في مدينة «كان» التي قرأت تفاصيلها في صحيفة الفيجارو الصباحية؟

كنت أميل في مخيلتي الى تصديق هذه الفرضية الاكثر قرباً من المنطق وأنا على يقين بانني لن أواجه صعوبة تذكر في دفع الشبهات عني. وتأكدت انني أحمل سنوية السيارة في محفظتي وأغتنمت الفرصة هذه لألقي نظرة ملؤها الحنان على الصورة الملونة التي التقطت لي في المطار مع انجلين. وعندما اخرج من هذا المكان سأتسكع في شارع الشانزيليزيه وسأتناول طعامي في أحد المطاعم وأتوجه فوراً الى ٧٦ شارع لابيروز. .

كانت افكاري شاردة هناك عندما جاؤوا لاستدعائي للمثول أمام مكتب المفوض الرئيس.

وظننت ان الثريا البلورية قد سقطت على رأسي بكل مساميرها النحاسية المزخرفة ومصابيحها الحلزونية، فقد وجدت أمامي امرأة آسيوية شابة شاحبة الوجه مشعثة الشعر تجلس على أريكة واطئة ترتدي بدلة بيضاء.

كان مظهرها يشبه السيدة لي فان تو لكنها لم تكن السيدة لي فان تو. لم تكن تلك السيدة التي رأيتها البارحة لدى وصولنا الى مطار اورلي.

كان يقف قريباً منها رجل اصلع قصير القامة في الاربعين من عمره انيق جداً صيني أو فيتنامي الاصل. وفي الجانب الآخر كانت المضيفة ذات العيون الرمادية التي واكبتنا حتى باب الخروج تجلس على كرسي هناك.

وفور دخولي الى الغرفة رفعت رأسها فجأة ورمقتني بنظرة فاحصة وقالت دون تردد.

- أنه هو، انني واثقة من انه هو.

كانت تتفرس في وجهي بشيء من الذهول المشوب بالرهبة.

- ايها القذر! تمتمت بذلك وهي تنظر إليّ قبل ان تجلس مجدداً على كرسيها وتنفجر بالبكاء.

كنت مذهولاً تماماً وانا أرتعش وغير قادر على التفوه بكلمة واحدة، لاحظت فقط ان في هذا المكتب عالمّاً مجنوناً وكان بين هؤلاء الناس سائق سيارة الاجرة التي كانت قد أقلتني من مطار اورلي لغاية الفندق. لقد تعرف عليّ هو الآخر بصفة قطعية. أخرجوني من الغرفة وادخلوني

الى غرفة ثانية في الجانب الآخر من الممر، ربما كانت غرفة طعام قديمة فيها موقد من المرمر واثنا عشر كرسياً.

تركوني هناك لفترة طويلة فريسة لحيرة رهيبة وبدأت أشك ان حادثاً ما قد حدث لانجلين، ولكن ما هو؟ ومتى؟ وأين؟ وكيف؟ ولماذا أكون أنا المذنب الى الدرجة التي جعلت هذه المضيفة الجذابة تنعتني «بالقذر» جهاراً؟

وعندما اقتادوني الى المكتب الكبير الخالي من الاشخاص وجدت نفسي أجلس وحيداً أمام المفوض الرئيس والمفتش ولم يتركوا لي بالتأكيد أية فرصة لكي أطرح عليهم سؤالا ما.

كان عليّ ان أقص عليهم بالتفصيل الظروف المحيطة برحلتي كلها منذ وصولي الى مطار نيس والاقلاع الاول للطائرة وحتى دخول المفتشَيْن الى غرفتي في الفندق. لم يكن هناك ما يستدعي اخفاء الحقائق وكنت أتحدث بارتجال وباسهاب، دون أن أتخيل اطلاقاً ما قد يحصل لي. فطنت الى ضرورة اعطائي التفاصيل الكاملة عن استخدامي للوقت ساعة بساعة مع البراهين التي تدعم ذلك ولحسن الحظ كنت احتفظ في جيب سترتي بكشف حساب «بطاقتي الزرقاء»(*) التي دفعت بها حسابي عند تناولي طعام العشاء لوحدي في مطعم «لاكوبول». كما تذكرت أرقام الهواتف التي طلبتها من غرفتي في فندق «لوتيل دولافنو». كان رجال الشرطة يصغون اليّ باهتمام وهم يسجلون الملاحظات دون ان يقاطعوني. شعرت ان كل ما قلته لهم

* البطاقة الزرقاء ـ وسيلة للدفع تستخدم في فرنسا بدل النقود

كان موضع شك كما لو كنت ازودهم بحجج وأعذار لا صحة لها .
سألني أحدهم فجأة :
هل كانت لديك حقائب مسجلة في الطائرة؟
لا لم تكن لديّ . وبالتأكيد فانه كان على علم مسبق بذلك . لم تكن بحوزتي سوى حقيبة يد وحقيبة جلدية حمراء صغيرة مع قميصين وجوارب وحافظة لادوات الحلاقة .
- اذاً، ما هو سبب توجهك الى محل تسليم الحقائب الخاص بطائرتك؟
قلت لنفسي :
- يا للعنة! «لقد ضبُطتُ » .
حاولت أن أفسر قدر المستطاع هذه الاكذوبة الواضحة بانني كنت حائراً في خينها بين متطلبات الصغيرة وتحفظات والدتها .
قاطعني بشدة قائلاً :
- كنت تعرف جيداً انها لم تكن والدتها !
كيف كان بوسعي ان أعرف ذلك؟ هل كان عليّ أن أصدق انجلين عندما قالت لي بانها ابنتي واننا كنا نعيش سوية فيما مضى في بيت صيفي على ساحل البحر مع خطيبة تدعى كلودين؟ عندما كنا نركبّ الحصان سوية على الساحل؟
كان الصمت لا يحتمل والتوتر شديداً حتى ينتابني شعور بأنني كنت استغرق في اعترافات غيبية.كان فخ الذنب الوهمي يُطبق عليّ ولا يدع لي مجالاً للافلات منه لجهلي المستمر بما كانوا يريدونه مني . ولم

أكن أعلم بالـذي حل بانجلين. كنت اتخيـل وبـدقـة متنـاهية ومؤلمة وجهها الجميل وعينيها الغارقتين بالدموع وهي تستدير نحوي مرة ثانية في صالة المطار وترسل لي القُبل. .

لم يتم العثور قط على الخاطفة ولا على القتلة. الا أنه عُثر بعد فترة طويلة وعلى اثـر دفـع الفـدية الفاحشة، عثر على الدمية المصنوعة من القماش ذي المربعات وهي موضوعة داخل فستانها. ثم عُثر فيما بعد على جثة الصغيرة المقطعة والفاسدة داخل كيس للنفايات على مقربة من موقع تفريغ النفايات بامتداد الطريق السريع المرقم (أي ـ ٤).



سافـرت الى لنـدن في شهـر حزيـران من تلك السنة وكان صديقاي كريس وجوديث ستيفنس يحتفلان بعيد ميلاد ابنتهما كلارا الثامن عشر وبانتقالهما الى شقة جديدة في (٨) شارع روزنكرانتز، وابلغني كريس في الهـاتف انـه شارع صغيـر وهـادىء بعيـد عن المـركـز ويقع خلف (بـارسن جرين) الا ان الـوصـول اليـه سهل لان الحافلات القادمة من مطار هيثرو تتوقف قبل تقاطع التاميز غير بعيد عنه .

لم أكن منـزعجـاً من القيام بهذه الرحلة ولقاء اصدقائي الانجليز في مثـل هذه الظـروف السعيدة ولا من رؤية الشابة اليافعة كلارا التي كنت أعـرفهـا يوم كانت طفلة . كان المـانـع الـوحيـد يتمثل في عدم ملاءمة تاريـخ الاحتفـال الذي يصادف يوم الجمعة السابع من الشهر وهو اليوم الـذي يقـام فيه العرض الوحيد الذي يقدمه المغني جيل جيلبرت على مسرح بوبينو في تلك السنة .

كنت في حينهـا أحـد المعجبين المتحمسين لهـذا المغني الشـاب

الذي لم يكن قد أرتقى بعد الى مرحلة ما يسمى «بالنجومية»، غير أنه كان قد كسب حظوة الصحافة وعدداً لا بأس به من الجمهور. كنت احتفظ في داري باسطواناته وأشرطته كلها وأحفظ أغانيه عن ظهر قلب وأتلهف لظهوره على شاشة التلفاز.

واستعداداً لليلة السابع فقد اقتنيت بطاقتي في وقت مبكر ومنذ اليوم الاول لابتداء البيع، لعلمي بعدم امكانية الحصول على مكان شاغر بعد بانتهاء الاسبوع الاول للبيع.

وبما أني لا أتساهل مع فروض الصداقة فقد تنازلت عن مقعدي في الصف الأمامي لأحدى زميلاتي في العمل وتدعى كريستين التي اعتدت الخروج معها احياناً، «انها لا تواجه مشقة في العثور على زميل يرافقها الى مسرح البوبينو، وربما يرافقها ألبير ذلك الأحمق» الذي يعمل في القسم التجاري في الطابق الاسفل ويغازلها في الممرات. كنت قد ذهبت الى مكتب السفريات لاقتناء تذكرة السفر (ذهاباً وايابا) الى لندن عن طريق الخطوط الجوية البريطانية وأبلغت رئيسي في العمل بأني سأترك المكتب هذه الجمعة مبكراً بصورة استثنائية تفادياً للزحام الذي يحدث على طريق رواسي السريع.

وهكذا شددت الرحال وأنا منبسط الاسارير وعازم على عدم التفكير بحفلة «جي . جي» الغنائية. كنت أحمل في حقيبتي هدية بمناسبة ميلاد كلارا وهي الاسطوانة الاخيرة لهذا المغني وغلفتها باشرطة واوراق مذهبة.

استقليت سيارة اجرة فطائرة فحافلة، ووصلت دون مشاكل تذكر

متبعـاً ارشـادات كريس أمام بناية بارسن جرين ، واتذكر اني شعرت في البـدايـة بشيء من خيبة الامل فلطالما أحببت منزلهم القديم ذا الطابع الانجليـزي الصـرف بحـديقتـه الصغيـرة وسيـاجـه الصـدىء ومدخله الضيق! لكنني وجـدت نفسي أمـام بنـاية عصرية انيقة من ثلاث طوابق غيـر انهـا عاديـة جداً نعثـر على امثـالهـا في بلدنـا بالقـرب من منطقـة (بورلارين) أو (رويمالميزون) .

دفعت الباب الزجاجي ودلفت الى الصالة الرخامية الزاهية بنظافتها والمزينة بالمصابيح الجدارية وبعض الشجيرات الموضوعة في أصص .

هناك سُلّمان دائريان في كل طرف من الصالة يفضيان الى الطوابق وفي النهـايـة نجـد المصعـد المحاط من اليمين واليسار ببابي الشقتين الكـائنتين في الطـابق الارضي . لم اجـد صعـوبة في التأكد من أن آل ستيفنس يقيمـون في الطـابق الارضي لان أسمهم كان الـوحيـد الذي يظهـر على لوحـة صنـاديق البريد . وشككت ، فربما يكونون الساكنين الوحيدين في هذه العمارة! غير أنني كنت مخطئاً ، وبينما كنت متوجهاً نحـو باب شقتهم رأيت امـرأة قصيـرة القـامة تخرج من المصعد أمامي وهي ترتـدي بدلـة صوف رمـاديـة وتضـع على رأسهـا قبعـة دائـرية من القماش نفسه وتحتذي جزمة نصفية ذات اشرطة وتمسك بيديها زمامين مربـوطين بهمـا كلبين صغيـرين من نوع كانيش(*) رمـاديي اللون كانـا يسرعان في جر صاحبتهما الى الخارج .

---

* كانيش ـ نوع من الكلاب مجعد الشعر وصغير الحجم .

وظللت متعجباً للحظة ما بهذا الظهور المفاجىء الا انني تجرأت ـ رغم ان ذلـك لا يحـدث مطلقـاً في بريطـانيـا ـ وهمست بكلمة «مساء الخيـر» لطيفـة باللغـة الانجليـزية لكنها استقبلتها باحتقار ولم ترد حتى بنظرة. وبينما كانت السيدة تهم بالخروج مع كلبيها الصغيرين طرقت باب آل ستيفنس الذين استقبلوني بحرارة تزيد كثيراً على ما نعهده في الانجليز بصفة عامة.

ـ أوه ! لقد أتيت ! يا لحسن الحظ! كلارا ستكون سعيدة جداً!

كانت الشقة واسعة ورائعة تطل على أرض خضراء منسقة تضاء ليلاً بمصـابيـح بيض مثبتـة على قواعد كونكريتية بمستوى الارضية. وكان هنـاك بعض المـدعـوين المنتشـرين على العشب وداخـل صالـة الجلوس، الا ان «جودي» كانت قد صحبتني في البداية الى «الجناح» الـذي خصص لي لانني الـوحيـد من بين اصـدقـائهم الـذي عبر بحر المـانش للمشـاركة في الاحتفال. كانت غرفة نوم جميلة تقع في نهاية الممـر وهي مؤثثـة بسـريـر كبيـر مريـح يستند على قوائم واطئة ومغطى بغطـاء مصنـوع من نسيـج الـموهيـر ذي المربعات وفيها حمام خاص ممتـاز يحتـوي على مغطس فضلاً عن مدخل مستقل يطل مباشرة على الصالة الرخامية للعمارة بواسطة باب يشبه باب الشقة لم انتبه اليه عند وصولي ويقع تحت السلم الدائري الايمن.

وعنـد استقـراري في «مسكني الجـديـد» بدأت أتفحص المكـان بالتفصيل، ثم أبدلت قميصي وربطة عنقي وعدت الى الصالة الكبيرة حامـلاً بيـدي الهـديـة المـزينـة بالاشرطة وهنأت كلارا بعيد ميلادها.

كانت ترتـدي فستـانـاً جديـداً فاخـراً للسهـرة وتضـع على كتفيها شالاً مصنـوعـاً من الكتـان الرمادي الموشى بالحرير المذهّب وترتدي الكثير من الحلي وتتبختـر بلطف وسـط اصـدقـاء بعمـرهـا يشكلون مجموعة صغيـرة سيئـة الهنـدام شيئاً ما ولكنها خفيفة الظل. قدمني كريس الى مدعـويـه الـذين كانـوا كلهم تقـريبـاً من الانجليز أو الاسكتلنديين وقد اصطحب اكثـرهم اطفـالهم . كانت الشمبانيا تُشرب في كل زاوية من الغـرفـة وبـدأنـا نخـدم انفسنـا على المـائدة الفاخرة المعدة خصيصاً للاحتفال، وهي مائدة صينية أو معدّة بالأحرى على الطريقة الصينية، تضم الفطـائر المتبّلة وسرطانات البحر وحلوى الشعرية وانواعاً مختلفة اخـرى. أحضـر خادمان هنديان فيما بعد على مائدة متحركة قدوراً من الـرز ولحم العجـل وقطعـاً من لحم البـط والـروبيـان واطبـاقاً أخرى، فأكلت وشـربت جيـداً وتجـولت حامـلاً كأسي بيـدي بين المـوجودين داخـل الشقـة وخـارجهـا أتبـادل اطـراف الحـديث مع هذا وذاك بلغة انجليزية أو فرنسية متكلفة جداً وبدأت أشعر بضجر شديد.

وفي حوالي السـاعـة العـاشرة أو العاشرة والنصف عدت خلسة الى غرفتي، لكنني لم آت الى لندن كي أخلد الى النوم حتى ولو كان ذلك في جنـــاح ملكي! اغتنمت فرصـة وجـود مدخـل خاص لغـرفتي لكي اختفي عن الانظار وسط الاحتفال دون اشعار أحد بذلك.

ليس هنـاك شيء يعجبني قدر التجـوال بمفـردي ليـلاً في الشـوارع المجهولة لمدينة غريبة كبيرة لاني أشعر ان كل شيء ممكن أن يحدث لي وفي العـادة لا يحصـل شيء. كنت أشعـر اني لو فُقدت فلن يكون

. بمقدور أحد العثور علي ولكني لا أتيه عادة .

وهكذا وبخطى وئيدة تجولت في هذا الحي اللندني الانيق والمقفر الـذي ليس فيـه ما يدعو لاثارة الاهتمام . توجهت الى الشارع العريض الذي تمر به حافلات المطار وتتجه نحو مركز المدينة .

كانت لا تزال هنـاك بعض السيـارات تمـر في الاتجاهين ، فدخلت الى احـدى الحـانـات من خلال باب زجـاجي مزدوج وكـانت صاخبة ومـــزدحمـة غالبيـة زبـائنهـا تقـريبـاً من الـرجـال فاقتـربت من طاولـة الشراب وطلبت كالجميع كأساً من الجعّة وانسحبت حاملاً كأسي بيدي نحـو نهـايـة الصـالـة حيث كنت قد لاحظت مكـانـاً شاغراً على مقعد خشبي بالقـرب من لعبـة رمي السهـام . وحين سحبت علبة سجائر من أحـد الاجهـزة الاوتـومـاتيكيـة في احدى الزوايا المعزولة لمحت تلك السيـدة القصيـرة القـامة ذات البدلة الرمادية التي صادفتها عند دخولي الى عمـارة آل ستيفنس وهي جالسـة الى احدى الموائد الواطئة محاطة بعدة رجال أنيقين يتكلمون بصوت عال ويقهقهون .

كان كلباها ممدين على البساط قرب قدميها ولا أدري إن كانت قد رأتني وتعـرفت علي ولكنهـا لم تعـرني أي انتبـاه . أنهيت بهدوء شرب الجعـة وأنـا ادخن بعض السجـائـر وأتفحص باهتمام الديكور وممثلي هذا المشهـد المألـوف للحيـاة اللنـدنية ليلة يوم الجمعة خلف بيرسن جرين . لم يكن أمراً مكدّراً ، غير أني لم أستطع منع نفسي من الشعور بالنـدم بعض الشيء ولفتـرات متبـاعـدة بسبب ضيـاع الليلة العظيمـة للمغني جيـل جيلبـرت التي يفترض انها تقام في الوقت ذاته بعيداً عن

هذا المكان على مسرح بوبينو، أتذكر اني سرحت في بعض التأملات المرّة حول عجزنا نحن معشر البشر عن ان نكون في أكثر من مكان في الوقت نفسه.

وأخيراً عدت الى منزل اصدقائي بعد ان سلكت ببطء طريقاً طويلة في الجانب الآخر من الشارع. كنت مصمماً على العودة الى احتفال كلارا والاندماج أكثر مع مدعويها الشباب وتساءلت عن وقع هروبي القصير الأجل عليهم. كان الوقت قد قارب منتصف الليل حين ولجت مجدداً الصالة الرخامية الكبيرة وبينما كنت أهم بالتوجه الى الباب الخاص بشقتي لمحت أمامي شابتين ظريفتين في العشرين من العمر وهما جالستان سوية على درجات احدى السلمين الدائريين يرتديان سروالاً من الكتان وقميصاً فضفاضاً فاقع اللون وهما ممسكتان ببعضهما يغلبهما النعاس منهارتان وكأنهما ترزحان تحت ثقل مصيبة عظيمة.

وما أن لمحتاني أهم بالدخول حتى نهضتا بحركة واحدة، كانت احذيتهما الملونة شبيهة باحذية راقصات الباليه، واندفعتا نحوي.

- أوه! سيدي! قالتا ذلك بنبرة مثيرة للشفقة وبلغة انجليزية اكاديمية تُشعرك وانت على بعد عشر خطوات بأنهما تتبعان طريقة «أسيميل» في تعلم اللغة الانجليزية وفي السنة الاولى. «عفوك يا سيدي هل بامكانك مساعدتنا؟ وهل تقيم في هذه العمارة؟»

- ما الذي حل بكما؟ قلت ذلك باللغة الفرنسية ودون ان ابدي اهتماماً زائدا بقضيتهما..

ـ أنت فرنسي؟ يا لحسن الحظ؟

وحينئذٍ اسـرعتا برواية الحادثة المزعجة التي ألمت بهما، وهي في الواقع شديدة البساطة تتلخص بالإتي : تسكن الشابتان منذ فترة قصيرة من الـوقت في احـدى الشقق الصغيـرة الكائنة في الطابق الثالث وعند عودتهمـا من السينمـا تذكـرتـا أنهمـا قد نسيتـا مفاتيحهما داخل الشقة لاعتقـاد كل واحــدة منهمـا بأن الاخـرى تحمـل مفـاتيـح . لم يكن بالامكان العثور في مثل هذه الساعة على وكيل العمارة (لم يكن هناك حارس) أو على مصلح اقفـال في لنـدن مسـاء الجمعة ولو حصل ذلك فانه يكلفهما مبلغاً كبيراً من المال لا يملكانه . وأقترحت عليهما لسوء الحظ قائلاً :

ـ هل أستدعي الشرطة؟

ويمجـرد ذكـري لهـذه الكلمة سمرتا عيوناً مرتعبة في وجهي بطريقة جعلتني اعتقـد انني لو أستمـررت في هذا الاتجـاه فانهمـا قد يهـربان راكضتين واضعتين بذلك نهاية للقائنا الظريف .

كانت لديهمـا فكـرة أخـرى اكثـر دهاء وتبدو لهما أفضل . أما تلك الفكـرة، فتتلخص بأن العمـارة التي كانت معـروضـة للايجار منذ فترة قريبـة فارغـة تقريباً (وهذا ما كنت قد عرفته مسبقاً) ولكن لحسن الحظ بدا لهمـا ان الشقـة الكـائنة في الطابق الثالث الى اليمين وعلى السلم الايسر والمجاورة لشقتيهما كانت مشغولة، لقد استمعتا الى وقع أقدام وأصـوات أبـواب وحنفيـات وحتى صوت مذيـاع أو تلفـاز، وقـد يسهل عليهمـا الـدخـول الى تلك الشقـة وعبـور الغرفة الرئيسة والانتقال الى

الشـرفـة المطلة على الحـديقـة . ومن الشـرفـة يمكنهمـا الدخول الى شقتهما حيث تركتا الباب الزجاجية مفتوحة .

طلبت اليهما وأنا منبهرٌ بفطنتهما وجسارتهما قائلاً :

ـ بالتأكيـد ، يبـدو لي ذلـك أمـراً بسيطـاً ، ولكن أليس فيه شيء من الخطر ؟ فأجابتا قائلتين :

ـ كلا انـه ليس بالأمـر الخطيـر، غير أن هناك عائقاً كبيراً يتمثل في عدم رغبة ساكني الطابق الثالث في الجهة اليمنى فتح الباب لهما .

ـ كيف يمكنهم الا يفتحوا الباب لكما ؟

ـ لقـد قرعنـا البـاب ودققنـا الجرس وكنا نعلم بوجود شخص ولكنهم لا يجيبون ولا يفتحون .

ويسرعة مرت في مخيلتي بضعة تفسيرات سهلة فلربما كان هؤلاء النـاس نائمين أو أنهم لا يثقـون بالغيـر أو أنهم وبكـل بساطة لم يكونوا يريـدون التعـرض للازعاج اثناء الليل من جار غير معروف وبخاصة في مدينة مثل لندن !

غير أن القضية بدأت تثير اهتمامي . فقلت لهما بثقةٍ :

ـ سأصعد معكما ، وسنرى .

وهكـذا دخلنـا نحن الثـلاثـة في المصعـد وصعـدنـا بجرأة العمارة الخـاويـة الصامتة ، وانتهزت فترة الصعود كي أتفحص عن قرب هاتين الشابتين الفرنسيتين . الاكثر شقرة كانت أكثر بدانة واكثر طفولية وشعرها أقصر واكثر تجعيداً وعيناها منغرزتان في محجريها تميلان الى الزرقة . أمـا الاخـرى فكـانت أكثـر نحافة واكثر شحوباً ووجههما بارز الملامح

وشعـرهـا أطـول لها نظرة اكثر قساوة وتبدو أشد مكراً، بالتأكيد فانها أقل رقة الا انها أكثر حيوية.

وبينمـا كنـا نهم بالخـروج من القفص الحـديـدي أشـارتا الى باب الشقة الواقعة الى اليمين: انها باب خشبية ذات لون اسمر داكن مكونة من لوح واحـد محكمـة السـد صلبـة ومجـردة من النقوش. أما القبضة فتشبـه قبضـات الابـواب الأخرى في العمارة وفي الاعلى قفل لمزلاج الأمان وفي وسط الباب توجد عين سحرية زجاجية صغيرة للتكبير تتيح للمرء الذي في الداخل رؤية الزائر في الخارج فيقرر فتح الباب أو عدم فتحها له.

- انـه هنـا. هذا ما قالتـه لي الفتـاتـان بصـوت خفيض كما لو كانتا تشعران بأننا سنرتكب جريمة خطيرة هذه الليلة مع سبق الاصرار والترصد.

خيل لي انني استمعت من وراء الباب الى صوت واطىء لموسيقى مسجلة. ضغطت على الجـرس مرة واحـدة ولفتـرة طويلة فبـدا لي ان الـراديـو قد توقف، وانتظرت بضع لحظات فقرعت الجرس ثانية ولفترة أطـول شيئـاً ما. إنـه الصمت. نظرت الى الفتاتين اللتين ابتعدتا قليلاً تبـدو عليهمـا علائم الشعور بالذنب والذهول. وضغطت على الجرس ايضـاً وهـذه المـرة بسلسلة من الضربات القصيرة والسريعة التي كنت أطيلهـا احيـانـاً وبطـريقـة غير لائقة وانهيت العملية اخيراً بقرعة طويلة جداً. لا شيء على الاطـلاق انـه الصمت المطبق. انطفأت الانـارة المؤقتة في الطابق، فقامت احدى الفتاتين باعادتها في الحال.

استمعت بكل وضوح الى باب تُفتح داخل الشقة فاغتنمت الفرصة للقيام بسلسلة دقات سريعة على الجرس ولكوني كنت متأكداً من وجود أحـد يستمـع اليَّ خلف الباب بدأت مرافعة طويلة عن حالة الهلع وأنا أرويها بافضل ما أمتلك من لغة انجليزية:

ـ المعـذرة، استمـع الي.. من فضلك.. هاتـان الشـابتان الواقفتان على البـاب.. همـا جارتـاك.. لقـد نسيتـا المفـاتيـح داخل شقتهما ويـريـدان الدخول والمرور في شقتك للوصول الى الشرفة.. المرور فقـط.. ولن يستغـرق الأمـر أكثـر من دقيقة.. لن تتعرض للازعاج.. أرجـوك.. إنهمـا فتـاتـان فرنسيتـان.. اسمـح لهما بالدخول.. كن لطيفـاً.. أوكـد لك بأن.. توقفت في منتصف الجملة لاهثـاً ثائـر الاعصـاب مرتعشـاً لانني كنت شديد الانفعال في خطبتي هذه! أردت اقناع هؤلاء الناس أياً كانوا ان يفتحوا لنا بابهم كما كنت أود اقناع هاتين الفتاتين بانني مهتمٌ فعلاً بقضيتهما وعازم على انقاذهما!

انطفأت الانـارة في الممـر مجـدداً وهمست احـدى الشـابتين وهي تعيد الضوء قائلة: اللعنة!

لاحظت بكل وضوح ان هناك شخصاً خلف الباب يرفع غطاء العين السحـريـة الصغيـرة دون أي ضجيـج. وكـان ينظر الينا من خلال هذه العـدسة المكبرة المقيتة. حاولت ان اتخيل للحظات قصيرة أية صورة غريبة ومشوهة قد يكونها الشخص المجهول عنا نحن الثلاثي الغريب.

لبثنـا بدون حراك صامتين غيـر مرتـاحين لمعـرفتنـا بأننـا مراقبـون

وعـاجـزون. كنـا نحبس انفـاسنـا وشعرت ان قلبي يدق سريعاً، كنت مستعداً أن أرفع يدي الى الاعلى وأقسم بأني لن اكون البادىء بالاطلاق!

وأخيـراً أغلق غطـاء العين الصغيرة واستمعت الى وقع اقدام خفيفة على البساط ابتعدت الى الداخل ومن ثم اقتربت وبعد لحظات بدت لي جدُ طويلة لمحت قصـاصـة ورق بالقرب من قدمي دُفعت بصعوبة من تحت البـاب. اتخـذت وضـع القـرفصاء والتقطتها فاكتشفت بأنها ورقـة نقـدية بقيمة عشرين جنيهاً استرلينياً ومن ثم استمعت الى صوت رجل يتحدث بالفرنسية قائلاً:

- ليس بوسعي فتـح البـاب، لا تحـاولوا الالحاح علي، استأجروا غرفة في فنـدق، وبقيت مذهـولاً أمـام هذه الكلمـات كمـا لو كنت قد رأيت شبحـاً يظهـر أمـامي فجأة ولم يكن ذهـولي لمعنى الحـديث بل لاني استطيع تمييز هذا الصوت الفرنسي الخفيض السريع والشجي من بين آلاف الاصـوات، لقـد كنت متأكـداً - ودون ان يراودني ادنى شك في احتمال وقوعي في الخطأ - انه كان صوت المغني جيل جيلبرت.

اعطيت الاشـارة بضـرورة الانسحاب العاجل واصبحنا نحن الثلاثة في باحة مدخل العمارة بعد ان هبطنا من السلم الدائري بسرعة فائقة.

ما زلت متأثـراً كي أتمكن من وضـع خطـة عمـل. حاولت اقناع نفسي عبثاً انـه يستحيـل تماماً ان يتمكن جيل جيلبرت من التحدث الي عبر باب الشقـة اللنـدنيـة في اللحظة ذاتها التي كان يغني فيها على مسرح البوبينو. لقد أخذت على حين غرة بهذا اليقين الخاطف.

ومن المصادفات العجيبة ان كلمات «غرفة في فندق» التي قالها لنا كانت تتكرر في مقطع من أغنية «المطر» التي تعد من أنجح اغانيه التي كنت اغنيها بنفسي منذ أشهر محاولاً تقليده! وبخاصة طريقته في التشديد على كلمتي «استأجروا غرفة» وطريقته في تلفظ كل مقطع. . انه صوت مغني محترف ومن غير الممكن ان أكون على خطأ.

كنا نجلس ـ أنا والفتاتان ـ في اسفل السلالم وفي المكان نفسه الذي رأيتهما فيه عند وصولي، غير ان قضيتهما اصبحت الآن قضيتي ايضاً. واردت أن أفهم أكثر فدخلت في لعبتهم بعمق محاولاً في الوقت ذاته إخفاء لعبتي.

ـ على أية حال هذا الرجل الذي تحدث الينا في الطابق الاعلى هل يسكن هناك؟ ألم تريانه في هذه العمارة من قبل؟ لم تكونا قد رأتاه وصادفتاه في هذه العمارة قط وتلك هي المرة الاولى التي استمعتا الى صوته ـ ويا له من صوت!

بدأ بعض مدعوي آل ستيفنس الذي سبق وان تعرفت اليهم بمغادرة مكان الاحتفال على شكل مجموعات صغيرة مع اطفالهم وقد دُهشوا بدون شك وهم يجدوني جالساً على السلم بمصاحبة آنستين مجهولتين غير ان تربيتهم البريطانية الممتازة جعلتهم يتغاضون عني أو على الاقل يمرون بقربي دون النظر إلي.

وتابعت حديثي مع الفتاتين بحدة قائلاً:

ـ وانتما ألم تريا قط سيدة قصيرة ترتدي لباساً رمادياً وقبعة دائرية ومعها كلبان مجعدا الشعر؟

لم تكونا قد رأتا على الاطلاق سيدة ترتدي لباساً رمادياً ولا استمعتا الى صوت هذين الكلبين المجعدي الشعر! وبحسب رأيهما فان العمارة كانت شاغرة فعلاً باستثناء الشقة التي تقيمان فيها، في الطابق الثالث على الجانب الايسر وشقة اصدقائي الكائنة في الطابق الارضي على الجانب الايمن. وفي مكتب التأجير قال لهما وكيل العمارة بانهما أول مستأجرتين. وربما يكون قد أجر الشقة الفارغة بعدهما.

- في الواقع، لقد رأيت هذه السيدة مع كلبيها! وأنا أعلم أين هي. تعاليا معي فسنتحدث اليها.

بدأت أنسج في خيالي قصصاً وهمية حول موعد سري مزعوم بين جيل جيلبرت والسيدة الانجليزية، غير أني لم أكن مؤمناً بذلك فهل من المعقول ان يُلغىٰ العرض الاول في مسرح البوبينو! قد يكون الامر أشد خطورة واكثر غموضاً ولكني ربما أتمكن من التوصل الى شيء ما عن طريق هذه السيدة الغريبة.

ولكي اطمئن هاتين الفرنسيتين الصغيرتين حول مبيتهما الليلي فقد اعطيتهما ضماناً بانهما لن يناما في الشارع ولا حتى على درجات سلم العمارة، فقد قطعت على نفسي عهداً ان أترك لهما في أسوأ الاحوال جناحي الخاص لدى آل ستيفنس ليقضيا ليلتهما فيه حيث ستجدان سريراً واسعاً وحماماً كبيراً. أمسكت بذراع كل واحدة منهما وأخترقنا مجدداً وبمرح الحي الخالي باتجاه الحانة التي حدثتهما عنها.

وعلى طاولة الشراب كما لو كان سيحدث ذلك الشيء من تلقاء نفسه لاكمال الليلة فقد طلبت بصوت عالٍ ثلاثة كؤوس من شراب الـ

(بمز رقم ١) التي دفعت ثمنها فوراً كما هي العادة وأنا أخرج من جيبي علانيـة الـورقـة النقـديـة من فئـة عشرين جنيهاً استرلينياً العائدة لجيل جيلبـرت. توجهنـا وبأيـدينـا كؤوسنـا الى إحـدى الطاولات المستديرة الصغيرة الكائنة في نهاية الصالة وهي أقل ازدحاماً في هذه الساعة مما كانت عليه عند زيارتي الاخيرة.

لقد خمّنت انني بقدومي الى هنا بصحبة شابتين لطيفتين قد يصبح الأمر أقل صعوبة اذا أردت التحدث الى سيدة مجهولة في مكان عام، غيـر ان حسـابـاتي برهنت على فشلها التام منذ الوهلة الاولى فلم يتبق من أثر للسيدة الرمادية القصيرة القامة ولا لكلبيها المجعدي الشعر لقد هربت، تبخرت، اختفت ؟

هذا ما اضطـــررت الـى الاعـتـــراف به فوراً لرفـيقتي اللتين بدأتـــا تتسـاءلان عن اللعبـة الغـريبـة التي كنت العبها. ولكن بما أن مشكلة سكنهما حُلّت مؤقتاً. وبما اننا قررنا باتفاق مشترك أن نشرب حتى بما يزيد على العشرين جنيهاً التي جاءتنا هبةً من السماء فقد أمضينا سهرة ممتعة تبعتها ليلة مفرحة قضيناها سوية نحن الثلاثة في السرير المربع الكبير الخاص «بجناحي الملكي» . كنت ما ازال مضطرباً في مكان ما نتيجة انفعالي الذي لا يصدق في تلك الليلة غير اني تمكنت من اقناع نفسي ان كل امـــرىء ـ وحتى أنـــا ـ قد يتعـــرض للخطأ وربمـا وقعت ضحيـة تهيؤات لا شعـوريـة عزوتهـا الى حرمـاني من مشـاهـدة حفلة المغني جي . جي. على مسرح البوبينو.

ولدى استيقاظي صبيحة اليوم التالي وأنا أشعر بألم شديد في رأسي بدأت اطـــرح على نفسي اسئلة محيـرة . فنهضت بهـدوء من الفـراش متخطيـاً جسـدي القطتين الصغيرتين النائمتين وتوجهت الى الحمام . كانـت ترد الى مخيلتي باستمـــرار الجمـــل الثـــلاث التي قالهـــا هذا الشخص المجهـول المقيم في الطـابق الثـالث على الجـانب الايسـر وهي : «ليس بوسعي فتـــح البـاب ، ولا تلحـوا ، وأستأجـروا غرفـة في فندق!»

وبينمـا تركت قرص الأسبـرين الفـوار يفـرقـع في قدح الماء أخذت ادندن ذلك المقطع من أغنية جي . جي عن غرفة الفندق . ثم تذكرت ان اغنيـة المطـر موجـودة في الاسطـوانـة التي أهـديتهـا الى كلارا ليلة البـارحـة . ارتـديت رداء النوم وعدت دون ضجة الى غرفة الاستقبال . كانت الشقـة هادئـة تمـامـاً ، وفي الصـالة الكبيرة كانت هناك الفوضى المعتادة التي نجدها صبيحة اليوم التالي من الاحتفال : منافض سجائر ملأى وأقـداح وقنـاني وصحون في كل زاوية وقطع من الفطائر والكعك الممتـاز لم يؤكـل منها سوى الشيء القليل وهي متروكة على فرشة من الـرمـاد واعقاب السجائر . كان جهاز تشغيل الاسطوانات ما يزال مضاء واسطوانة جيل جيلبرت موجودة بين اسطوانات أخر وأنا أعلم ان الاغنية التي أبحث عنهـا في نهـاية الوجه الاول من الاسطوانة ، فوضعتها على الجهاز وخفضت الصوت واستمعت الى غنائه :

انه المطر، انه المطر

يرغم العشاق على البقاء

في غرفهم في الفندق . .

وضعت رأس ذراع الجهـــاز خمس مرات وستـاً على المقطـع عينـه لكي استمـع باستمرار الى الجملة نفسها : غرفهم في الفندق، غرفهم في الفنـدق . وفي كل مرة كانت قنـاعتي تتعزز أكثر فاكثر. هذا الصوت الـرخيم والاجشّ لابـد أنـه صوت جيل جيلبرت العصيّ على التقليد، انه الصوت ذاته الذي استمعْت اليه في الطابق الثالث ليلة البارحة .

ما العمــل؟ ما العمـل؟ لم يبق لي سوى حل واحـد كي أطـرد عني الشـك باليقين . اتجهت نحـو جهـاز الهـاتف الكائن في مدخل الشقة وأدرت بشيء من الصعوبة رقم هاتف كريستين في باريس :

ـ آلو، كريستين؟ قلتها بسذاجة وقلبي يدق . كيف كانت السهرة في البوبينو؟

أجابت في الحال :

ـ أوه! هذا انت، لقد ضبطتك . هل تتحدث عن سهرة!

لقـد جعلونـا ننتظـر ثلاثـة اربـاع الساعة لكي يعلنوا لنا فيما بعد ان العرض قد يتأخر، ثم أجل وبعدها ألغي . لم نعرف حتى سبب ذلك؟ . .

وظللت صامتاً من فرط الذهول وأنا ممسك بالسماعة في يدي . أول ما تبادر الى ذهني (الساذج) ان كريستين كانت تستخف بي أو كما يقال حاولت «خداعي» . لكنها واصلت الحديث بحدتها المعهودة .

ـ . . ومن ثم اصبح الوقت متأخراً للذهاب الى السينما . .

كان آلبير حانقاً . . وقال أنك في المرة القادمة . . !

أقفلت سماعة الهاتف دون أن أرد بشيء لاني كنت أسخر مما يفكر به هذا الاحمق آلبير! غير أني أردت أن أفهم سر الظروف العجيبة التي جعلت جيل جيلبرت يختفي هناك في الطابق الاعلى الكائن فوق رأسي في هذه العمارة اللندنية وفي نفس الليلة التي كان عليه ان يحيي فيها حفلته الفنية!

لم يكن هناك ما يسمح لي بالصعود وطرق باب شقته ولكني لم استطع ايضاً تجاوز القلق الذي بدأ يجتاحني، دون ان افعل شيئاً.

وحين تناولي طعام الفطور المتأخر جداً مع اصدقائي الانجليز وصديقتي الفرنسيتين الصغيرتين الجديدتين رويت بسرعة وبنبرة متجردة جداً قصة المفتاح المفقود الذي سبب وجودهما معي في الشقة صباحاً. وفي ذهن كريس وجوديث فان هذا العذر الكلاسيكي لم يغير شيئاً من سمعتي «كزير نساء لا يمكن اصلاحه». غير أن كريس سوّى الأمر بسرعة عندما اتصل من بيته بوكيل العمارة وهو أحد زملائه الذي وعد بالمجيء فوراً مع المفاتيح الاحتياطية الخاصة بالشقة الكائنة في الطابق الثالث على الجانب الأيسر والسلم الأيسر. كان أمراً يسيراً جداً!

وصل هذا الوكيل الذي كانت تبدو عليه الدقة والبرود بعد مرور ربع ساعة ودخل الشقة رافضاً تناول فنجان القهوة الذي اقترحه عليه كريس. رافقني مع الفتاتين بواسطة المصعد الى الطابق الثالث حيث فتح باب الشقة التي على اليسار بالمفتاح الاحتياطي، وبعد ان تأكد ان الانستين قد وجدتا مفاتيحهما الاصلية طلب اذن المغادرة بسرعة

شديـدة. وعلى عتبـة البـاب لم أتمـالـك نفسي من سؤاله عما اذا كان هناك شخص آخر يسكن في الشقة المجاورة وبدا أنه وجد سؤالي غير لائق تمـامـاً فرمقني بنظـرة قاسية وخرج دون ان ينبس ببنت شفة. كان ينبغي علي التشبّه به! الا أن الاغراء لا يقاوم. فالان وبعد ان تمكنت من الـدخـول الى الشقة الكائنة في الطابق الثالث على الجانب الايسر سأتمكن من معرفة عن قرب ما كان يجري في الشقة التي على الجانب الايمن.

كانت الفتـاتان فرحتين بالعودة الى منزلهما أكثر من فرحتهما بالعودة من رحلة سياحية لمدة ثمانية عشر شهراً في افريقيا السوداء، وأطلعتاني بالتفصيـل على شقتهمـا وأثاثها التي وجدتها عملية جداً: غرفة ومطبخ وخزانات في الحائط ومغطس في الحمام. ومن ثم اقترحتا علي تناول فنجـانـاً من القهـوة «الحقيقيـة» الفـرنسيـة التي تختلف عن المشروب الشاحب الذي قدمته لي عائلة ستيفنس. قلت لهما بشي من اللاابالية:

- بوسعكمـ دعـوة جاركمـا كدلالـة على العرفان بالجميل لما فعله ليلة البارحة.

أجابت احداهما:

- فكرة جيدة! وذهبت في الحال دون ان يبدو عليها أي نوع من الضيق وقرعت جرس الشقة المجاورة.

كنت انتظر وقلبي يخفق وانا أتحسب لكل شيء ظناً مني بادىء ذي بدء ان أفضل ما يمكن أن يحصل قد يكون سيئاً. عادت مسرعة تقريباً،

لم تحصل على أي رد وهذا يعني بحسب رأيها عدم وجود أحد . . لم يكن في الواقع ما يدعو هاتين الانستين الى الاهتمام بجارهما في الشقة المجاورة غير أن الأمر كان يهمني . ففي الوقت الذي كانت فيه القهوة الكولومبية تصفر داخل الدورق الايطالي خرجت من المطبخ بشيء من الوقاحة باتجاه الغرفة ومن ثم الى الباب الزجاجية المطلة على الشرفة .

لم أنس المقترح الجزيء الذي كانت قد تقدمت به الصغيرتان الماكرتان ليلة البارحة . وحيث انه يمكن المرور دون خطر يذكر من شرفة الجار الى شرفتهما فما الذي سيمنعني من المرور من شرفتهما الى شرفة الجار؟

بقيت لفترة وجيزة أتأمل بصمت العشب الاخضر الخاص بالعمارة والممتد تحت قدمي بنحو عشرين متراً الى الاسفل وتأكدت من العمود الحديدي المثبت في الخرسانة المسلحة المحيطة بالشرفة . وبدون تردد عبرت الحاجز وأنا متشبث بالسياج فمررت فوق الفراغ باتجاه الشرفة المجاورة حيث تجاوزت العمود الحديدي بالطريقة ذاتها . وتسللت دون أن أحدث ضجة وأنا ملتصق بالجدار باتجاه الفتحة الواسعة في الباب الزجاجية .

وذهلت لما رأيت وتسمرت في مكاني لم أجد شيئاً أو أي شخص ، كانت شقة فارغة بنوافذ قذرة خالية من الستائر يبدو انها لم تكن مشغولة قط من قبل وهي مفروشة ببساط أخضر اللون فحسب . كان هناك في احد زوايا الغرفة جهاز هاتف مقطوع التيار موضوع على الارض فوق

البساط وجهاز راديو ترانزستور صغير. وعلى الارض وقرب قدميّ رايت أمام الباب الزجاجية المغلقة علبة سجائر مفتوحة من نوع جيتان ذات الفلتر وهي ملأى بالرماد واعقاب السجائر فضلاً عن زوج من القفازات الجلدية. كان مشهداً أسوأ من الفراغ أو الغياب: انه الموت بأسرار الشرفة.

وعلى الفور سألتني الفتاتان من شرفتهما بنبرة صاخبة قائلتين:

- ما الذي تفعله هناك! يا لك من مجنون!

فتقهقرت الى الوراء، ومدتا يديهما لنجدتي لكي أنتقل من شرفة الى الاخرى. كنت شاحباً ومرتعشاً فعزتا ذلك الى الدوار والفعل الخطير الذي انتهيت منه تواً. قلت لهما بجد:

- أنتما على حق، لا يوجد أحد هناك.

أختصرت زيارتي للطابق الثالث ونزلت عائداً الى منزل آل ستيفنس. بقيت صامتاً مهموماً وأنا فريسة لهواجسي غير قادر على البوح بسري لأحد.

حاولت كلارا بلطافة ان تفرحني فاقترحت علي ان نستمع سوية الى الاسطوانة التي أهديتها إياها، فوثبت كي امنعها من ذلك، قائلاً:

- كلا. كلا، استمعي اليها بعد مغادرتي.

وابلغتهم بأنني سأغادر هذه الليلة. وكان كريس وجوديث قد خططا لدعوتي لتناول العشاء معهما في أحد المطاعم الفرنسية الذي افتتح مؤخراً في لندن، ولاصطحابي في اليوم التالي في جولة بالسيارة الى قصر وينسفيلد. لقد بدا عليهما التأثر الشديد عندما رفضت حتى

مرافقيهما بي الى المطار . لم أكن لأرغب في أن يلاحظا انني قدمت موعـد عودتي أربعـاً وعشـرين ساعة حيث كان علي تغيير بطاقة سفري هناك . لم أعثر على مقعد شاغر إلا في الرحلة الاخيرة لطائرة الخطوط الجـويـة الفـرنسيـة المغادرة في الساعة التاسعة والنصف مساء . وعند صعـودي الى الطـائـرة اسرعت فوراً في قراءة العدد الاخير من صحيفة فرانس سوار فلم أجـد فيـه ما يمكن ان يبـدد شكـوكي . وقـد استغرقت سيارة الاجرة التي استقليتها من مطار (رواسي) وقتاً طويلاً للوصول الى باريس وقطعها من أقصاها الى أقصاها .

ولـدى وصـولي الى مسـرح البـوبينـو وجـدت البـاب مقفلة والانوار مطفأة . وعلى لوحـة داخـل الصـالـة وخلف البـاب كان بالامكان قراءة الاعــلان المكتـوب باللون الاحمـر والمعلق على شكـل شريـط فوق لائحـة الاعـلان المخصصة للمغني جيل جيلبرت : «سهرة السابع من حزيـران : سيتم تعـويض مقتني التـذاكر ابتداء من الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين» . أما مراسيم دفن المغني جيل جيلبرت فقد تمت في السبت التالي في مقبرة بانيو . وبقدر تعلق الامر بالصحافة الباريسية التي تابعتهـا طيلة الاسبـوع باهتمـام كبير فانها لم تنشر الخبر الا عشية مراسيم الـدفن . واشـادت غالبيتهـا بمسيـرة ونجاحات المغني الشاب الذي رحل قبل أوانه . بعض هذه الصحف نشر صورته . أما عن ظروف وأسباب وفاته العرضية فاني لم أتمكن من العثور سوى على معلومات غامضـة ومتنـاقضة . احدى محطات الاذاعة المحلية كانت قد أشارت الى أمكـانيـة حدوث الـوفاة نتيجة لتناول «كمية كبيرة» من المهدئات .

ولكن متى ؟ وأين؟ لم يُشر الى ذلك. هل كنت الوحيد الذي يعلم الحقيقة؟

كنت أتوقع حضور جمهرة كبيرة من الناس حول قبره المفتوح وأن أجد نفسي أمام جبل من الزهور. غير ان المشاركة في المراسيم اقتصرت على اشخاص معدودين ربما اكثرهم من الاقرباء. لاحظت سيدة بدينة ترتدي السواد ويختفي وجهها خلف غلالة سوداء وهناك ايضاً بعض برجوازيي الاقاليم الفرنسية وهم يرتدون البدلات الداكنة ومجموعات صغيرة كئيبة ومراهقاً يرتدي ثياباً انيقة يشبه قليلاً جيل جيلبرت الا في لطفه. ولم أجد هناك قساوسة لحسن الحظ، بل وجدت مصورين وباقة رائعة من الزهور الحمر ارسلتها دار تسجيل اسطوانات.

وعند سير المراسيم لاحظت وصول سيدة قصيرة القامة رمادية الشعر تُخفي وجهها تحت قبعة مصنوعة من اللّبد وترتدي بدلة ضيقة من الحرير الطبيعي كما يبدو وهي تمسك بزمام كلبين صغيرين مجعدي الفروة وبسببهما ربما بقيت بعيدة بعض الشيء عن موقع مراسيم الدفن.

لم أكن متأكداً من تعرفي عليها ولكني نظرت اليها بامعان وخُيل اليّ بأنها كانت تحوّل نظراتها عني، ربما تكون هي الاخرى قد تعرفت عليّ؟ قطعت عهداً على نفسي ان أتحدث اليها فور ابتداء تقديم التعازي، الا أني رأيتها تغادر المقبرة بسرعة مستقلة سيارة انجليزية صغيرة مع كلبيها.وتختفي في الحال.

أحاديث سكارى

- إنها لامرأة قذرة!

- انها بغي!

- انها مومس! و ابنة مومس!

- انها كذابة وسارقة وغشاشة!

- انها نتنة!

- حقيرة و فاسقة !

- شرسة! متعجرفة!

- قذرة!

- لا تفكر سوى بالمال!

- إني اكرهها! سأنال منها!سأنتقم لنفسي !

- سأسحقها! انها قذرة!

تلك هي الأحاديث التي كنا نتبادلها تقريباً في المصعد ونحن ننزل من شقتها الكائنة في الطابق السادس، وأتذكر ان رونالد وهو في

غمـرة حنقـه الشـديـد ضرب بقبضتـه جدران المصعد المعدنية. بعد خروجنـا من العمـارة سرنـا بخطى واسعـة ونحن صامتـون بغيـة تهدئة انفسنـا تحت رذاذ المطـر المسـائي. أقتـرحت على رونـالـد بعد ذلك الـذهـاب سويـة لتناول طعام العشاء في أحد المطاعم التي أعرفها في هذا الحي والتي تقـدم طعـاماً وشراباً جيدين حيث سنتمكن من دراسة القضية بهدوء.

كنـا مقتنعين في اعمـاقنا تماماً ان موريل سيمون لم تكن لا مومساً. ولا بغياً، انها لم تكذب ولم تسرق. لقد أعدت بكل بساطة ما نسميه مزحة. وفيما يلي باختصار ملابسات القضية:

كانت موريـيـل سيمـون في حينهـا الممثلة الشـابة التي تتقاضى اعلى أجـر في السينمـا الفـرنسيـة الحديثة. ومنذ بضعة أشهر كانت قد أكـدت لنـا بانهـا «تعشق» السينـاريـو الذي قدمناه لها وان الدور الذي اعـددنـاه لهـا يروقهـا كثيـراً وانـه واحـد من افضل الادوار وربما الدور الافضل الذي أقترُح عليها طيلة حياتها الفنية. كانت ملهاة هزلية لكنها تنتهي بصورة مأساوية: فالبطلة الشابة التي كان يفترض ان تقوم بتمثيل دورهـا موريـيـل تتعـرض للاعتـداء في أحـد مواقف السيـارات تحت الارض. إنه مشهد عنف مفاجيء وكان من المزمع ان يستغرق ثماني دقائق ونصف دقيقة أتقنّا اعداد تفاصيله بدقة.

كانت موريـيـل تحب كثيـراً افلام رونالد السابقة وكانت ستُسر لو عملت معـه. لقـد وافقت على مواعيـد التصـويـر وعلى كل ما يتصـل بالتـوزيـع وظـروف العقـد الـذي لم يتبق سوى التـوقيـع عليـه. الفلم

بمجمله كُيّف لكي يناسبها ويتلاءم واسمها، كل شيء كان جاهزاً حيث حُجزتْ الديكورات وأبْرِمت العقود مع الفنيين. كدنا نطير فرحاً. وها هي تطلب منا مقابلتها قبل بضعة اسابيع من بدء التصوير لتبلغنا أخيراً وبعد أن فكرت ملياً بقرارها عدم تصوير فلمنا!

إمتقع وجه رونالد ورأيته يعب كأساً من الويسكي جرعةً واحدةً.

ـ موريبل هذا مستحيل! هل تمزحين أم ماذا؟

لم تكن تمزح للأسف. لقد حاولنا على مدى ساعتين ونحن نعب كؤوس الويسكي الواحدة تلو الاخرى أن نثنيها عن هذا القرار العجيب غير المقبول، وذي النتائج الوخيمة، ورجوناها حتى وصل بنا الأمر الى انذارها كي تُفسر لنا مبرراتها وكنا على استعداد لاعادة كتابة السيناريو بما يتلاءم وابسط رغباتها، والحصول على موافقة الانتاج على زيادة اجرها الى الضعف او الضعفين اذا ما تطلب الأمر. كما ابلغناها استعدادنا لاعادة كتابة الحوار واختيار بدلات جديدة وسيارات جديدة وحتى نقل مكان احداث القصة الى مونت كارلو أو كابري «اذا كانت منطقة الاوفيرن تخيفك»! وأن نغير اعتباراً من الغد شركاءها في الفلم كافة وان نتحمل نفقة أجور سفر وإقامة عُشاقها وجدتها ومربية ابنتها.

لم ينفع شيء امام عنادها فقد ظلت محتفظة برباطة جأشها. وعندما شعرنا انها مصممة على رأيها واثقة من نفسها وهي سيدة الموقف، وحين رأيناها، بهذا الجمال وهذه السعادة وهذه الغطرسة وهذا الارتياح وحتى بهذا الود وهذه الطبيعة الباريسية وبهذه الخفة في الوقت الذي كانت تغتال فيه فلمنا وتغتالنا، نعم نحن الاثنين، فان كل ذلك منحنا

فعلاً الرغبة في صفعها وضربها وحتى قتلها . .

قالت لنا في نهاية المطاف :

ـإني احبكمــا كثيــراً يا اعـزائي ، ولكن علي الان تغييـر ملابسي لكي أخرج .

وبينمــا كانت ترافقنـا حتى باب المصعـد قالت لنـا مرة أخـرى بلطافة ساحرة :

ـ أتمنى حظاً سعيداً للفلم ! أنني على ثقة من انه سيكون جميلاً جداً !

كانت الساعة تقترب من التاسعة ، وبعد نصف ساعة كنا نجلس الى المائدة سوية رونالد وأنا في مطعم «لاشوميير نورماند» وأمامنا طبق من الفطـائـر المحشـوّة والـزجـاجة الاولى من نبيذ البوجوليه البارد (انه النبيذ الوحيد الذي يمكنك شربه بعد الويسكي) .

كررنا لفترة طويلة الفرضيات الاكثر والاقل احتمالاً والتي دفعت الى ذلـك «النكث» الـذي نفـذتـه موريـيـل ، بحثنا طويلاً عن الوسائل النـاجحـة المختلفـة لتعـويضه . ومن ثم ونتيجة لخيبة الامل والارهاق والعجـز والحنق وربمـا ايضـاً بسبب وقـوعنا تحت تأثير الكحول الذي ارتشفنـاه بكثـرة وبينمـا كنا نتناول كعكة التفاح ونحن نحتسي الزجاجة الثالثة من البوجوليه أتخذ حديثنا منحىً آخر وعلى النحو التالي :

ـ كان علينا ان نضربها !

ـ كان علينا خنقها في الحال !

ـ ثم نوسعها ضرباً !

ـ ونهشم اسنانها !

ـ ونشوهها!
ـ ونفقأ عينها!
ـ كان علينا إغراقها في مغطسها!
ـ أو قذفها من النافذه !
ـ هل نعود الى هناك للتحدي؟
ـ كلا لقد خرجت هذه القذرة !
ـكي تتناول طعام العشاء مع حمقىٰ!
ـ العاهرة ! لقد سخرت بنا!
ـ هل ننتظر عودتها؟
ـ سنفاجئها في موقف السيارات كما هو الحال في السيناريو في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. .
ـ هذا اذا عادت الى البيت. .
ـ نختبيء خلف الاعمدة وبيدنا مطرقة. .
ـ زجاجة!
ـ ونوجه لها ضربة في رقبتها!
ـ من الخلف، نعم، في الظلمة. .
ـلن تفهم شيئاً، ستقع على الارض. . وتُظهر مؤخرتها
ـ نضيء الانوار كي ترانا جيداً.
ـ وستصرخ!
ـ فنوسعها ضرباً. بام ! بام! بالزجاجة !
ـ «ستسكتين، مفهوم !»

- ركلات في وجهها . .
-«ستوقعين عليه، هذا العقد الحقير!
- ضربة في البطن . .»
- سنحتذي جزماً كي نسبب لها الماً مبرحاً.
- نكسر اسنانها بركلات من جزماتنا .
- ننزع عنها ثيابها حتى الموت.
- ننتزع منها كل شيء.
- نمـزق فستـانها وجواربها وملابسها الداخلية. وبام، ضربة في الوجه وأخرى في البطن! وفي كل جزء من جسمها!
- ندق رأسها بالعمود.
- ونقذف بها على السيارات .
- نسير على يديها بجزماتنا.
- ونشبعهـا مرة أخـرى ركلات ولطمات. . ونتركها مضرجة بدمائها. . هناك. .
- نمثل بجثتها كالمتوحشين. .
- فوق الاسمنت وبين السيارات. .
- على غطاء السيارة الامامي والخلفي.
- ومن ثم نضعها في صندوق السيارة . . ونهارك سعيد!
- ونحشرها داخل الصندوق . . نطويها كالطريدة. .
- تخرج الرأس من الصندوق. نغلق الصندوق ونقطعها إرباً. .
- بركـة من الـدم على الارض. . ذراع متـدلية. . الصندوق يرفض ان ينغلق. .

ـ حسنٌ. كفى حماقات، رونالد. هل نخلد الى النوم؟

كنـا قد انهينـا ببـطء وبحـزن حلوى عصيـر التفـاح المثلج وهي أحدى الوجبات التي يشتهر بها مطعم «لاشومييير نورماند». وتُقدم على هيئة كؤوس يوضع فيها التفاح الاخضر المغمور بشراب الكالڤادوس.

انهـا بهجـة رهيبة تُفقد الصواب ساهمت في أن تجعلنا نستغرق في هذياننا الوهمي هذا.

عاد رونـالـد لكي يستقـل سيـارته. أما أنا فاستقليت سيارة أجرة وجدتها في شارع «مين».

وفي صباح اليوم التالي كنا في مكتب مُنتجنا حيث كان علينا ان نبلغه بسحنات حزينة إخلال نجمتنا بالاتفاق. وقال ببساطة:

«كنت اتوقع ذلك».

لم يكن من الرجال المتخاذلين أضف الى ذلك أنه لم يؤيد قط الاتفـاق مع موريـيـل سيمـون التي كنا قد فرضناها عليه تدريجياً. فلم يكن يحبها فقد كانت بينهما قضية قذرة جنسية أومالية. وربما الاثنان معاً دون شك. كان يتفادى رؤيتها ولم يكن يستعجل أمر توقيع العقد اذ كان يحمل فكرة مغايرة عن الشخص الذي بقوم بالدور.

ـ عليكمـا أنتمـا الاثنين أن تسـافـرا فوراً الى لندن وتحاولا اقناع كاتلين مورغان فاني على علم انها غير مرتبطة حالياً بعقد وسأتصل بوكيل أعمالها.

قمنـا بالـرحلة سوية الى لندن ذهاباً واياباً في اليوم نفسه وواجهنا وكيل اعمال كاتلين مورغان وكاتلين مورغان ذاتها. كانت ملائمة للدور

لعدم ارتباطها خلال الاوقات المطلوبة، غير أني لا أعلم لماذا لم ترق لنا هذه الفكرة. كنا حزينين وصامتين خلال وجودنا في الطائرة التي اعادتنا الى باريس عصراً. قلت لرونالد:

قد يتوجب علينا على الرغم من ذلك ان نحاول الالتقاء مجدداً بموريل فمن المحتمل ان تغير رأيها اذا علمت ان كاتلين ستتولى الدور بدلها. أجاب رونالد قائلاً:

ـ لن أعمل الفلم بدون موريل.

ولدى وصولنا الى مطار أورلي اراد التوقف برهة لشراء صحيفة اللوموند وعلبة سجائر جيتان ذات الفلتر، وبجانب كومة صحف اللوموند كانت هناك «الطبعة الاخيرة» من صحيفة فرانس سوار التي وصلت لتوها وعلى صفحتها الاولى المطوية شاهدنا صورة موريل وهي تنظر الينا بعينيها الواسعتين الماكرتين وبجانبها العنوان التالي: «مصرع موريل سيمون الشنيع» وببضعة أسطر كُتب تحت الصورة مقال ذكر انه اكتُشفت صباح هذا اليوم في موقف السيارات جثة الممثلة الشابة نصف عارية وقد نُكّل بها. ومن بين التفاصيل: ان القتلة «الساديون» وبعد أن أمعنوا ضرباً مبرحاً بالضحية بواسطة زجاجة حاولوا اخفاء جثتها داخل صندوق سيارتها وقطعوها الى نصفين فأنفصل رأسها عن جسدها تقريباً.

لم تضع الشرطة ولا الصحفي في حينها أية فرضية عن هذه الجريمة البشعة».

ولم ينُجز رونالد فلمه قط.


الضحية

كان ساقطـاً هنـاك ممدداً على ظهره على حافة الرصيف وعلى وجه التحـديـد كان رأسـه وأعلى جذعـه في مجـرى تصـريف المياه ما بين الرصيف والطريق الكائنة على مقربة من طرف البلدة.

كان الـوقت متأخـراً غير ان ليلة حزيران مضيئة وأنا عائدٌ من جلسة طويلة عقـدهـا مجلس البلديـة حيث دافعت إيـزابيـل ببسالة ودون ان تحقق نجاحاً عن مبدأ تقديم المساعدة لمحطة اذاعة محلية.

كان النقاش حاداً وكانت تحدونا الرغبة في أن نصرخ قائلين: «واصلي يا إيزا»! الا أننا كنا بعيدين عن الحصول على الاغلبية.

وهكذا طفقت عائداً الى بيتي مغتاظاً عندما لمحت هذا الجسد السـاكن على الجـانب الايسر من الطـريق. توقفت في الحال وعبرت الشـارع واقتـربت منـه. كان شابـاً كادحـاً في الثـلاثين من عمـره بهي الطلعـة لكنـه متسخـاً وذقنـه سيئة الحلاقة، ذا شعر كث ومهمل يرتدي قمصلة جلديـة فيهـا جيبان جانبيان مغلقان بسحابين سميكين وقميصاً أسـود واسعـاً جداً بالنسبـة لحجمـه وسروالاً «جينز» متهرئاً رثاً ويحتذي مداساً غريباً مترهلاً. كانت ذراعاه مطويتين ويداه مفتوحتين على صدره.

لمستُ يديـه وكـانتـا دافئتين. ربتُّ على وجنتيـه فأهتز رأسه قليلاً. طلبت اليه مرتين قائلاً: «هل تشعر بألم؟ هل تشعر بألم؟»

من معلومـاتي الطبيـة السطحيـة لم يكن بمقـدوري عمـل الافضل ولكن كان يبـدولي أنـه وبكـل بساطة ضحية لتأثير كحولي شديد ولنقل إنـه شخصٌ ثمـلٌ تمـاماً! وأكثر ما كان يثير فيّ القلق وضعه الخطر على

الطـريق فاذا ما مرت سيـارة بسـرعة عالية بعض الشيء بقرب الرصيف فانها قد تمر بكل هدوء فوقه وتسحق رأسه. كان بوسعي أن أغير مكانه وأضعـه باكمله فوق الـرصيف، غير اني أعلم بانني غير حاذق في هذه العمليـات الحسـاسة والتي غالباً ما لا يُنصح بها. صعدت مجدداً الى سيـارتي الـواقفـة على الجانب الايمن، وبعد مناورة شجاعة عدت بها الى الخلف وأوقفتهـا على الجـانب الايسـر نصفهـا على الـرصيف والنصف الآخـر على قارعـة الطريق كما أضأت المصابيح. وبالتأكيد فاني غامرت بعض الشيء ولكن على أقل تقدير كنت أحمي بافضل ما أستطيع جسد هذا الشاب الجريح. توجهت من ثم بسرعة على قدمي الى كابينـة الهـاتف الكـائنـة قبل تقاطع سكة الحديد مباشرة واتصلت برجال الاطفاء لاخبرهم بما اكتشفت في ممر تصريف المياه الواقع أمام الرقم (٣١) شارع (ناسيونال).

عدت على اثـرهـا وجلست على الـرصيف قرب الضحية خلف سيارتي. ولحسن الحظ كانت قد بقيت لدي بضع لفائف من التبغ.

كانت البلدة خاليـة وصـامتـة والليلة عذبة ولم أكن في عجلة من أمري أو أشعر بقلق. بقيت في حراسة جسد هذا الرجل الشاب النائم كالنـائمـة قرب قتيـل. مرت سيـارتـان باقصى سرعتيهمـا على جانبي الطـريق دون ان يخففـا السـرعـة الا تفـاديـا للاصطدام بسيارتي وكان السـائقـون يعبـرون عن امتعـاظهم أو احتجـاجهم باعطـاء اشـارات بمصابيحهم العالية.

سرحت أفكـاري واعـدت التفكيـر مجـدداً بنقـاش إيـزابيل في المجلس. وربمـا كان علينـا تهيئة ملف أكثر جدية معززاً بالارقام على

وجه الخصوص، حيث تولي البلديات الرجعية في المدن الصغيرة أهتماما بالارقام أكثر من اهتمامها بالافكار. وتكرر ايزابيل قائلة: «انها مجرد مكائن للنقود».

لم يأت رجال الاطفاء بل قدم رجال الشرطة الذين يمكن التعرف عليهم من خلال عرباتهم ومصابيحهم الارشادية الزرقاء. نزل الضابط في البداية وحياني دون اهتمام وانحنى باتجاه الكادح الشاب. لمس يديه وربت على وجنتيه بقوة اكثر مما كنت قد فعلت. أهتز الرأس الى اليمين والى الشمال. رفع بسرعة أحد أجفانه. من المؤكد ان معلوماته الطبية تفوق كثيراً معلوماتي.

تحدث دون ان يوجه الكلام لأحد:

- أنه ثمل تماماً!

نهض عندئذ وسألني قائلاً.

- هل تعرفه؟ هل تعلم أين يقيم؟

لم أكن قد رأيته قط في هذه البلدة. أخذ الضابط يبحث في جيوب قمصلته وجيوب سرواله فلم يجد شيئاً، فلا محفظة ولا أوراق ولا نقود.

استدع رجال الاطفاء. قال موجهاً كلامه الى أحد زملائه الذي كان قد نزل من العربة. وأضاف قائلاً ويبدو انه يقصدني هذه المرة: «لكل عمله كما تعلم»

وسألته قائلاً:

- ولكن ما الذي سيفعله به رجال الاطفاء؟

- سينقلونه الى المستشفى ليخمّر نبيذه هناك! انهم معتادون على

ذلك. أما نحن فليس بمقدورنا أن نفعل كل شيء.

وبينما كان الشرطي يتحدث من العربة بجهاز اللاسلكي تقدم الضابط نحوي خطوتين ومد يده لمصافحتي قائلاً:

- على أية حال شكراً لابلاغك.

كانت تلك وسيلة للتخلص مني فاستقليت سيارتي وأدرت المحرك، فكرت في اضاءة مصابيح الاشارة وانطلقت متخذاً الجانب الايمن من الطريق.

أقيم منذ اعوام عديدة، وبالتحديد منذ طلاقي، في بيت ريفي عتيق منعزل بعض الشيء خارج البلدة وخلف تقاطع السكة الحديد. انه منزل واطيء يطل على أرض بالامكان زراعتها بالنجيل غير اني تركت الاعشاب العالية تغزوها. ومن جانب الشارع يمكن الوصول اليه من طريق غير مرصوفة وعبر حاجز خشبي عريض فيه بابان مفتوحتان على الدوام.

كنت أشعر بالاطمئنان لان المنزل - كيف أصف ذلك؟ - يدير ظهره الى الشارع ولا يمثل لعابر السبيل سوى واجهة كاذبة. وقد يضنه المرء حظيرة فالابواب والنوافذ والشباك الكبير تطل جميعها على الجانب الآخر وعلى الارض العشبية ومن هذا الجانب أغلق بعناية المنافذ كافة ولكن هذا لا يمنع من ان ينتابني شعور بالخوف كلما عدت بمفردي الى المنزل وبخاصة اذا كان الوقت متأخراً ليلاً في الشتاء.

ومتى ما دخلت واغلقت الباب من الداخل شعرت بالطمأنينة، وتساءلت لم كان ينتابني مثل هذا الخوف بحق الشيطان؟ وغالباً ما اقرأ

صحفي وأدرس ملفـاتي تحت ضوء مصباح المطبخ الكبير وأنا أحتسي كأساً قبل ان أخلد الى النوم في بيتي الهادي‌ء.

وفي تلك الليلة، ليلة المجلس البلدي الاخيرة، وبعد أن تركت رجـال الشـرطـة اجتـزت المطبـخ دون تأخيـر وولجت الى غرفتي وأنـا مصمم على النوم باسرع وقت. ولكن ما الذي وجدته على عتبة غرفتي حين اضـاءة النـور؟ وجـدت شخصـاً ممدداً على ظهره يبدو وكأنه راقد ويـداه مفتـوحتـان وموضوعتان على قمصلته الجلدية ورأسه منحنٍ قليلاً خارج السجادة. أنه الرجل الشاب الذي تركته تواً بعهدة رجال الشرطة والاطفاء في احدى قنوات التصريف في شارع ناسيونال.

أطفأت وأضأت الانـوار كمـا لو كنت قد أخطأت في الطـابق! كنت على وشك القول: «المعذرة يا سيدي»،دنوت منه وانحنيت عليه.

أنه هو بعينه: وجه الكادح الصغير ذاته ذي الشعر الكث ذاته والملابس ذاتهـا باستثنـاء الاختـلاف البسيـط التـالي: سحّـابتـا قمصلتـه كانتـا مفتوحتين في الجانبين.

ربت على وجنتيه مجدداً وبشيء من الحدة كما فعل الضابط فاهتز رأسه ثم حركت كتفيه وصرخت فيه قائلاً:

- يا هذا! هل تشعر بألم؟ ماذا تفعل هنا؟ هل أنت نائم أم ماذا؟ اللعنة!

انـه لا يستجيب اطـلاقـاً، نظـرت الى اصـابعـه السميكـة و اظافره المهملة المسـودة بسبب القطـران أو الشحم الاسـود وفي نهاية البنصر الايمن وعند نهاية الظفر لاحظت أثر دم متخثر أحمر قاتم.

أول فكـرة خطـرت على بالي هي الاتصـال برجـال الاطفاء أو حتى برجـال الشـرطة مباشرة. ولكن ماذا بوسعي أن اقول لهم؟ بأني وجدت

ضحية أجرى ثملة تماماً وترقد على بساطي؟ ولكنه الشخص نفسه! انه ذاك الذي عثرت عليه أمام الرقم (٣١) شارع الناسيونال! ولم يكن بمقدوري اقناعهم انه أخوه التوأم المتماثل معه وراثياً! كما لم يكن بوسعي ان أسألهم عن سبب تركه يغادر وحيداً في الليل في الحالة التي كان عليها. ولم أكن لاستطيع أن أسالهم ايضاً عن سبب قيامهم بنقله الى بيتي، كنت أعلم ان ذلك شيئاً مستحيلاً لانني تركت مكان الحادث قبلهم وعدت مباشرة الى المنزل وليس هناك سوى طريق واحدة بعد ممر السكة الحديد بين القرية وبيتي.

قررت الا أفعل شيئاً فلم تكن هناك حالة اضطرارية أو خطر في المسكن، ستتضح الامور بصورة أفضل يوم غد. كان علي أن أنام قليلاً كي أكون على استعداد للعمل في المكتب.

ومهما يكن من أمر فقد تحسست بسرعة جيوب زائري لاتأكد بعد رجال الشرطة انه لم يكن يحمل سكيناً أو مسدساً. فكل شيء محتمل؟ رميت عليه غطاء، وهو معطف رحلات اسكتلندي كنت قد جلبته معي من رحلتي الى ادنبرة في الشتاء الماضي. حاولت من ثم النوم جاهداً تاركاً مصباحاً مضاء بالقرب من سريري وهو مصباح هادىء يميل للزرقة استخدمه عادة عندما استقبل في فراشي سراً زائرة جميلة. تأكدت ان ساعتي الالكترونية المنبهة تعمل جيداً ووقتها كما هي العادة على الساعة الثامنة الا ربعاً صباحاً وكانت الساعة تشير الى حوالي الثانية بعد منتصف الليل.

ان المشهد الاول الذي راعني عند استيقاظي تحت ضياء الصباح المتغلغل عبر الستائر البيضاء كان المعطف ذو المربعات الزرقاء

والخضـراء الـذي كنت قد غطيت به وبكل وِدٍ زائري في المساء، كان مرمياً بلا ترتيب على البساط ولكن لا احد ولا شيء على الاطلاق.

قلت لنفسي : «حسنٌ ربما يكون قد خرج بنفسه» و«كما دخل».

غيـر أني لم أكن أعلم حقـاً كيف استطـاع المجيء والـدخـول الى غرفتي في منتصف الليل والابواب والنوافذ مغلقة.

اتجهت الى الحمـام لاغتسـل قليـلاً وشغّلت بطريقة عفوية الماكنة الكهربائية الايطالية لاعداد القهوة ولاحظت في ذلك الحين تحت ظفر بنصـري الايمن جرحـاً صغيـراً لا بد انـه ظل ينزف طيلة الليل أوخلال المسـاء. ولكني لا أتـذكـر بأنّي أصبت بخـدش في أية لحظة. فقمت بتنظيف الجرح بواسطة الكحول ووضعت ضماداً لاصقاً على نهاية اصبعي.

بقيت طيلة اليوم وأنا جالس في مكتبي أفكر بالاحداث التي عكرت صفـوسهـرتي وليلتي. لم تكن في نيتي مفـاتحة زملائي في العمل بما حدث لي ولكني وجهت لنفسي العديد من الأسئلة التي لم أجد لها رداً معقولاً.

أنا أعمل لدى شركة لتقدير الاضرار المؤمنة ونسميها فيما بيننا شركة الاحتيال للتأمين. وهذه التسمية قريبة من الواقع بعض الشيء فالشركة تعمـل في حدود الشـرعيـة. وحسب علمي فانها تعمل لحد الآن على الجانب السليم من الحدود!

ويعد رئيس عملنا السيد سيمونو داهية في عمله وليس بوسعنا سوى اتبـاع توجيهـاته بهدوء حيث يعود ذلك بالفائدة علينا لاننا نحصل على راتب شهري اضافي فضلاً عن مكافأة سنوية أخرى.

استغللت ساعة الغذاء بغية تغيير الضمادة وتنظيف جرحي تحت الظفر الذي ينزف بغزارة. اتصلت من ثم خلسةً بالشرطة وسألتهم عن حالة جريح ليلة البارحة فحولوني الى رجال الاطفاء الذين جاءوا لنقله وحولوني بدورهم الى المستشفى الذي نقلوه اليه في حوالي الساعة الثانية من بعد منتصف الليل. وعند انتهاء يوم العمل توجهت مباشرة الى المستشفى البلدي الذي يشبه داراً للعجزة وكان في السابق ديراً للراهبات تعود أبنيته الى القرن الثامن عشر وهي متجمعة على شكل مربع حول كنيسة صغيرة. أما البناء الجديد الوحيد اللائق فقد خصص للحالات الطارئة والاعمال الادارية.

ليس من السهولة بمكان، صدقوني، الحصول من المستشفى البلدي على معلومات عن شخص نجهل اسمه ولقبه!

وبأية صفة سيجيبونني على استفساري ؟

أما الممرضات اللواتي توجهت اليهن طلبا للعون واللواتي لم يكنّ بالتأكيد في واجب الخفارة الليلة الماضية. فقد أظهرت رغم ذلك نوعاً من المجاملة وهنَّ يفتشن في السجلات والبطاقات ويتصلن بالاقسام المختلفة ويستجوبن الزملاء حتى المعاونين الذين كانوا يمرون في قاعة التعقيم.

وأخيراً قال لي أحدهم:

- ولكنه موجود في قسم الجثث المجهولة الهوية فقد توفي عند وصوله الينا.

وبينما كان يتحدث الي شاهدته وهو يلاحظ الضمادة السريعة التي كنت قد وضعتها على نهاية اصبعي والتي كانت تنزف بغزارة وباستمرار. غير انه لم يوجه لي أي سؤال. وليت هارباً وأنا أعدو. لقد فهمت الآن كل شيء.

غرفة ازهار الغليسين

كنا افضل اصدقائها رغم فوارق السن، وكان أمراً طبيعياً ان تاتينا لتضع نهاية لحياتها .

كانت قد رتبت شؤونها بشكل جيد وقالت لي في الهاتف «الامور تسير على خير ما يرام، جهزوا لي الغرفة الصغيرة المطلّة على الحديقة، اني احبها كثيراً لان فيها زهور الغليسين . . »

فلم أجد من المناسب تذكيرها ان زهور الغليسين تسقط في شهر تشرين الاول! ذهبت لاستقبالها في محطة القطار وأتذكر اني وجدتها وضاءة وعلى قدر كبير من الجمال والاناقة وهي ترتدي معطفها الطويل الرمادي ذا القلنسوة .

كانت تجر وراءها حقيبة واسعة من القماش الاحمر تتحرك بعجلات وتحمل معها فضلاً عن ذلك آلتها الكاتبة . فصحت وأنا أضع الحقيبة داخل صندوق السيارة قائلاً :

---

*ازهار الغليسين - جنس نباتات معترشة من الفصيلة القرنية .

ـ هذا غير ممكن! إنك تنقلين معك مكتبتك الشخصية!
ـ بضعـة معـاجم فقـط ، فعليَّ إتمـام ترجمتي بأي حال من الاحـوال .
قامت زوجتي بمسـاعـدتهـا في الاستقـرار في «غـرفة ازهار الغليسين» وتـرتيب كتبها وحاجياتها . وفي المساء الاول وعند جلوسنا الى المائدة لتنـاول العشـاء ، أضفت باحـاديثهـا وطـرائفهـا وحكـايتها الغريبة عن مشاريعها الادبية البهجة على عشائنا .
ـ عندما أنتهي من ترجمتي ، سأعكف على تأليف عمل إبداعي اجمع فيه كل الروايات التي ترجمتها وسأصف كافة المناطق التي عملت فيها خلال ثلاث سنوات وبالتأكيد سيكون منزلكم وغرفة أزهار الغليسين منها .
وكـانت كريستيـان قد سألتهـا عن قصص حبهـا التي غالباً ما كانت عنيفة وفاشلة . فأجابت قائلة :
ـ وضعتهـا في الثـلاجـة يا حلوتي ! لن يكـون هناك شخص في حياتي قبل أن أنهي ترجمتي !
وفي المسـاء لعبنـا نحن الثـلاثـة لعبـة الورق أمام الموقد وهي لعبة اختـرعتهـا بنفسهـا ويتم احتسـاب النقـاط فيهـا كما هو الحال في لعبة التنس : ١٥ ـ ٣٠ ـ ٤٠ ـ فائدة ـ انتهاء الشوط .
وفتحنـا زجـاجـة الويسكي «المعتّقَة منذ أثنتي عشرة سنة» كانت قد أخفتهـا في قعـر حقيبتها الغريبة . وبينما كانت تهم بتركنا للذهاب الى غرفتهـا ، حملت معهـا الورق لتتسلى به بعض الوقت قبل خلودها الى النـوم . كمـا أخـذت معها المتبقي من زجاجة الويسكي لانها لا تحب

النوم بمفردها!.

وفي غرفتنا الكائنة فوق غرفتها مباشرة أتذكر باننا كنا سعيدين أنا وزوجتي بهذه الزيارة غير المتوقعة لصديقتنا ولبشاشتها ومشاريعها. وقالت كريستيان: «نادراً ما وجدتها بمثل هذه الحالة الحسنة». و «نادراً» تعني في لغتها «قط».حيث كانت كريستيان تحتفظ لها بذكرى سيئة عن اقامتها السابقة عندنا بسبب أزماتها النفسية ونوبات البكاء والنوبات العصبية التي كانت تنتابها! كما أنها لم تنس أجازتها الصيفية التي ضاعت سدى في جزيرة (أبيزا) وهو الصيف الذي لم تحتمل فيه ايليان ان تجد نفسها سجينة داخل جزيرة، فبمجرد وصولنا أفتعلت مسرحية كاملة بغية العثور على قارب أو طائرة أو أية واسطة نقل تقلها الى «اليابسة». وتقمصت خلال ثلاثة اسابيع دور نابوليون عندما كان سجيناً في جزيرة سانت هيلانة رافضةً كما فعل الامبراطور الذهاب ولو مرة واحدة الى الساحل وهي تلعن يوماً بعد يوم «هذه الشمس المقيتة» التي أظهرت على وجهها الاملس بقعاً من النمش.

كان الوقت حوالي الساعة الرابعة أو الرابعة والنصف صباحاً عندما استيقظت على صوت عنيف لزجاج يتهشم، فنهضت عجِلاً ونزلت الى الطابق الارضي، وبينما انا تحت السلالم أهم باجتياز الصالة سمعت صوت نواح خفيف أجش متقطع يشبه صوت أنين حيوان جريح يخرج من غرفة ازهار الغليسين، فاتجهت صوب الباب المغلق من الداخل وهززته بعنف وصرخت مرات عدة:

ـ ايليان! ايليان! ما الذي يحدث؟

ليس هناك رد الا ذلك الانين الغريب الذي كان متصلاً متعاظماً في الجانب الثاني من الجدار. فاندفعت مضطرباً نحو الباب الخارجي ودرت حول المنزل عن طريق الحديقة وحتى العريش الذي تطل عليه غرفة ايليان.

كانت معلقة على عارضة الشباك من بطنها مطوية بثنيتين كما تعلق الملابس، رأسها مدلى وذراعاها معلقتان وشعرها الطويل الاسود منسدل فوق رأسها يلامس تقريباً الأرض المغطاة بقطع الزجاج المهشم لا بد وانها سقطت وذراعاها الى الامام فاخترق رأسها أولاً اللوح الزجاجي، ولكن لماذا بحق السماء؟ لماذا؟ رفعت قبل كل شيء خصلات الشعر التي كانت تغطي وجهها فوجدته مخضباً بالدماء وغارقاً بالعرق، يسيل من فمها المفتوح لعاب سميك يميل لونه الى البياض.

ليس من السهولة بمكان انتزاعها من هناك! وبمساعدة اللوح الزجاجي المهشم نجحت في ادارة العتلة الحديدية ودفع احدى ركائز النافذة. ودخلت الغرفة بعد ان تسلقت العارضة، ثم رفعتها وسحبتها بتأن من تحت الابط الجسد المتدلي لصديقتنا البائسة، مددتها على سريرها غير المرتب وأضأت الانوار. لم تكن ترتدي سوى ماكنا ندعوه قميص نوم خفيفاً مصنوعاً من القطن السميك بلون بنفسجي باهت ذا اكمام قصيرة مغلقاً حول الرقبة مع شرائط حمراء حريرية مفتولة تطوق خصرها. ولو ارتدت هذا اللباس امرأة اخرى لبدت حمقاء وغير محتشمة.

ولكنها كانت الفضيلة بعينها على الرغم من وضعها السيء الذي

يدعو للرثاء .

استمرت تئن ببطء محركة رأسها ، وفجأة انتابتها حالات تشنجية واستفراغ ، فذهبتُ الى المغسلة لابلل أحدى المناشف ونظفت قدر المستطاع وجهها وذراعيها ويديها اللتين كانتا تنزفان . ثم بدأ تورم أزرق يظهر على عينها اليمنى وعلى جفنها .

كانت الفوضى تعم المكان وحالة الضحية وكل شيء يدعو الى الاعتقاد بحدوث عملية اقتحام ليلية تبعتها حالة من الضرب المبرح . غير أن الحقيقة بدت لي واضحة للعيان بسرعة فمن المؤكد ان ايليان قد أفرغت زجاجتها من الويسكي وهي تلعب الورق على سريرها وتدخن لفائف التبغ . ومن ثم ابتلعت كمية هائلة من الادوية مع الويسكي ، ولا بد انها انتظرت فيما بعد بلطف قدوم الموت ليطيل رقادها بدون عنف وبدون ألم . إنه انتحار طفولي وهادىء نسبياً .

غير ان المحاولة فشلت : فتمسكها بالحياة جعلها تتخذ قراراً مغايراً ، ولا بد ان إيليان حاولت النهوض في منتصف الليل ولكنها سقطت من سريرها وهي متمسكة بالاغطية فارتطم رأسها بعنف بطاولة المصباح التي انقلبت فتبعثر زجاج المصباح المتكسر واوراق اللعب وزجاجة الويسكي وعلب وقناني الادوية في ارجاء الغرفة ، ولا بد انها زحفت حتى النافذة ، وبقفزة بطولية فاشلة رمت بنفسها عبر النافذة الزجاجية وقبضتاها ورأسها الى الأمام وكأني بها سمكة مخنوقة تبحث عن الهواء الذي تسبب في خنقها . صرختُ بكرستيان التي نزلت هي الأخرى قائلاً :

- أسرعي! نادي دورافور بسرعة!

تربطنا منذ سنين روابط جيرة عديدة طيبة واكثر من صداقة مع الدكتور دورافور. انه طبيب ممتاز وأعزب علاوة على ذلك وهو لا يرفض طلباً لنا قط عندما ندعوه لتناول العشاء معنا أو لممارسة لعبة البريدج سوية متى ما احتجنا الى لاعب رابع.

وكان يحمل الينا كل عام بمناسبة الاعياد علب الشكولاته وزجاجات الكونياك التي يهديها أياه مرضاه عرفاناً منهم بالجميل.

ذهبنا معه مرات عدة لممارسة الرياضة الشتوية وغالباً ما كان يدعونا لقضاء اجازتنا معه في جزيرة بوركيرول التي اعتاد الذهاب اليها. وكان من المفروض ان يغادر اليها فجر اليوم ذاته بالسيارة ولكن لحسن الحظ بقي في داره فوعد بالحضور فوراً.

فحص الصغيرة بسرعة وتأكد من ضغطها واستمع إلى نبضات قلبها ثم أخذ يلتقط علب الادوية المنتشرة على البساط واحدة فواحدة وكلها تحمل العلامة الحمراء، فقام بتفحصها بدقة لفترة طويلة وهو يجري حسابات علمية لا أعلم كنهها.

قال اخيراً:

- أي كوكتيل هذا! من أين جاءت بهذا كله؟

أخرج من حقيبته علبة تحتوي على انابيب زجاجية ومحقنةٍ وانبوبٍ مطاطي، بقيت ايليان مذهولة وساكنة كالطفل الوليد. فقام بزرقها بحقنة في الوريد في ساعدها جعلتها تهتز بشدة وتتقيأ فوراً. ثم استدار نحوي قائلاً:

- هل بامكـــانـــك نقلهـا الى المستشفى؟ سأتصـل هاتفيـاً بالقسم المعني فسألته قائلاً:

- يبدو ان الأمر خطير؟

- لا اعتقد، ولكن كل شيء محتمل يجب تنظيفها بعض الشيء إذ من الغباء ان تبقى بصيرة أو عاجزة طيلة حياتها.

-ألن يكون من الافضل الاتصال بالاسعاف؟

- كلا، فانك ستكسب الوقت اذا ما نقلتها فوراً.

وبينما كان الطبيب يتصل هاتفياً غيرت ملابسي على عجل وذهبت لجلب السيـارة. ساعـدتني كريستيان في نقل المصابة بغطاء ووضعها دورافور على المقعد الخلفي للسيارة. فانطلقت على الفور في الشارع الرئيس وتجاوزت القرية النائمة وأتخذت الطريق العام الخالي.

كنت أقـود سيـارتي بشيء من السـرعـة، الا أني بقيت حذراً متفادياً القيام بأية مخاطرة. كنت أشعر باني مكلف بمهمة حساسة جداً تفوق امكـانيـاتي وقـدراتي كثيـراً وكما لو كنت مسؤولاً فجأة عن نفس بشرية والمسؤول الـوحيـد عن بقـاء وسـلامـة صغيـرتنا ايليان. وعلى إثر هذه الحركة أو بسبب تأثير حقنة الطبيب استعادت شيئاً من وعيها فأستمعت اليهـا تتحـرك وتـدمـدم على المقعـد الخلفي للسيارة ويبدو انها كانت تهمس بكلمـات مثـل: «انهن مقـرفات . . الممرضات.»، ولم تكن تلك محاولتها الاولى . .

اجتـزت الجسـر على النهر، ورأيت من بعيد وعلى الجانب الايمن الاشـارات التحـذيـريـة الضـوئية الحمر الخاصة بتقاطع سكة الحديد

تضيء وتنطفيء. كنت أعلم اني لو اسرعت قليلاً فسيكون بمقدوري المرور بفارق ضئيل قبل ان تهبط الحواجز الى اسفل.

ولكن لن يكون ذلك اليوم هو يوم خروجي عن جادة الصواب! كان من السهل على دورافور ان يستدعي سيارة الاسعاف! فانا لست من اولئك الذين يركبون المخاطر. وبدلاً من زيادة السرعة، رفعتِ قدمي ووصلت أمام تقاطع سكة الحديد في اللحظة التي بدأت فيها الحواجز النصفية الاولى بالهبوط. وكنت أعلم في تلك اللحظة إنه بوسعي المرور ايضاً فقد فعلتها مرات عديدة وأنا أنعطف الى جهة اليسار في بداية الممر ومن ثم أتجه الى اليمين عند الخروج. لكني توقفت بحكمة بحيث اصبح غطاء المحرك مقابل الحاجز الاحمر والابيض والمحرك ما يزال دائراً.

اغتنمت فرصة هذا التوقف القسري لكي أستدير الى مؤخرة السيارة ومددت يدي نحو ايليان المختفية تحت غطائها بغية مساعدتها لكنها أخذت يدي وعضتها بعنف فسحبتها بسرعة. وقالت مرة اخرى ولكن بصوت مسموع تماماً:

انك تقرفني ، انهن يقرفنني! هؤلاء الممرضات قذرات!

لقد أخذت حالتها تتحسن.

مرّ من أمامنا قطار طويل للبضائع وهو يسير ببطء ولكنه كان يحدث ضجة شديدة وينقل صناديق هائلة الحجم وصهاريج وسيارات. . انني اغتاظ دوماً وانا ارى مؤسسة السكك الحديد على الرغم من كونها مؤسسة وطنية تمنح نفسها حق قطع الطريق أمام السيارات في منتصف

الليل لتنقل مجموعة من السيارات! الا أن الامر هكذا! فلم يكن أمامي سوى أن أتأمل عبر زجاجة سيارتي الامامية هذه السيارات الفارغة وهي مكدسة الواحدة فوق الاخرى تمر بأولوية تامة أمام سيارتي . وفي الوقت ذاته مرت في الجانب الآخر عربة قطار بريدية باقصى سرعتها.

وفور مرور هذا الموكب ارتفعت الحواجز فعبرت السكة واستأنفت السير بسرعة كبيرة وعيناي مسمرتان في الطريق بقدر ما تسمح به الحزمة الضوئية الصادرة عن مصابيح سيارتي.

اجتزت المدينة الخالية دون أن أخفف السرعة تقريباً واتجهت صعوداً نحو المستشفى. سرت على الممر المعبد بالحصى حول الساحة الصغيرة المزروعة بالعشب وتوقفت أمام سلم المدخل.

ـ كان دورافور قد رتب الامور جيداً فعلى الرغم من الوقت المتأخر، كانت بانتظارنا ممرضتان وطبيب مقيم ومعهم نقالة ذات عجلات، فتقدموا باتجاه السيارة، وبينما كنت أهم بالنزول فتحوا الباب الخلفي على مصراعيه.

قال لي الطبيب الخفر فوراً:

ـ ولكن كيف؟ ألست انت الذي نقل المريضة؟

فأجبتهم وأنا أقترب:

بلى بالتأكيد بلى. الدكتور دورافور..

توقفت عن الحديث قبل اكمال الجملة، وكما حدث للممرضتين والطبيب الشاب، فلم يكن بوسعي سوى أن أتأمل ببلادة المقعد الخلفي الشاغر والغطاء الذي تدحرج على الارضية التي تحت

المقاعد. لم يعد هناك شيء ولا أثر لايليان. .

وبعد ان تجاوزت اللحظة الاولى من الذهول قررت أن أظهر رباطة جأشي لأني لم أكن أريد ان أكشف، بحركة تعجب مفاجئة، القلق الهائل الذي انتابني في تلك اللحظة.

فقلت بصوت أجش:

- نعم . . . نعم . . لقد رتبت الامور. . تم الاتفاق مع الطبيب. . سأنقلها اليكم فوراً.

عُدت الى السيارة مجدداً، وغادرت على الفور، ولكن الى أين؟ للهروب فحسب. كي أمحو كل الاثار والصور لحدثٍ ربما لم يقع ولم أكن لأريد تصديقه أو لم أكن لأريده ولم استطع تحمل تبعاته.

كنت أكرر باستمرار «لقد ماتت، لقد ماتت. لقد فرت في طريق الاموات. لقد ارتفعت الى السماء. . ولكن أين جثتها؟ وجسدها الدنيوي؟ . . هل كانت هنا؟ هل هيّ موجودة؟ كلا هذا غير ممكن. . لا يمكن ان يحدث، لقد رأتها عيناي ولمستها اصابعي»

وفي تلك الليلة الحالكة وأنا أسير بسرعة على الطريق عبر الريف الخالي حاولت ارغام نفسي على تقديم تفسيرات منطقية أو معقولة على الأقل. ممر سكة الحديد! كانت ايليان ما تزال موجودة داخل السيارة حيةً ترزق. لقد تحدثت الي وعضت يدي. ان مثل هذه الامور لا يمكن اختلاقها، ربما تكون قد استغلت ذلك التوقف القسري لتتسلل خارج السيارة بمساعدة ضجيج السكة الحديدية. . والخلاصة فاني فقدتها خلال الطريق وساعثر عليها هناك بقميص نومها الخفيف

وهي تئن وتتقيأ على قارعة الطريق . .

ولكن هذا غير صحيح ، فحينما توقفت مجدداً أمام سكة الحديد في الموضع ذاته الذي كنت قد توقفت فيه مع ايليان وأنا قادم من منزلي لم أجد شيئاً أو شخصاً على الاطلاق.

نزلت من السيارة وذرعت التقاطع بخطى وئيدة. درت في حلقات مفرغة تلك الليلة وأنا أفتش في المناطق المحيطة القريبة محاولاً العثور على ادلة وآثار دون ان اقتنع.

كانت الحواجز الحمر والبيض مرفوعة ولم يكن هناك قطار على وشك الوصول، ولكن ربما حاولت ايليان تكرار المحاولة إثر النداء الذي لا يقاوم لهذه القضبان الحديدية الضائعة في الليل.

إني أحفظ دروسي جيداً : « الخطان المتوازيان لا يلتقيان الا عند الوفاة؟ قطعت الطريق ببطء في الاتجاهين ينتابني خوف من العثور بين القضبان على بقايا اعضاء بشرية مخضبة بالدماء وذلك لان القطر تمر خلال الليل على هذه السكة!

وقد يكون هناك آخرون عثروا عليها فاقدة الوعي قرب التقاطع! وانتشلوها لنقلها الى مستشفى آخر؟ أو ربما نقلوها الى مكان آخر في أحد الاكواخ القابعة في الغابة حيث يكونون قد حبسوها وأغتصبوها وعذبوها . .

لا شيء. انه الصمت المعتم لريف ضائع وقمر كبير ساخر في السماء يبدو عليه انه يعرف الموضوع اكثر مني بدرجة كبيرة . وفجأة انتابني قلق جديد فقلت في نفسي : «النهر»! . ليس هناك ما هو أفضل

للشباب المنتحر من الانهار والليل .

وبعناد يشبه عناد محقق الشرطة، تخيلت انه بمجرد خروج ايليان من السيارة فانها تمكنت من الزحف على طول الطريق حتى الجسر الكائن على نهر «لافلان» ومن هناك اجتازت بسرعة وبدقة الحاجز ورمت بنفسها الى النهر. . والوداع يا آنسة!

عدوت بسرعة على الطريق حتى الجسر كما لو كنت لا أزال أمتلك الوقت كي التقطها في الجو ما بين الحاجز والنهر. . بقيت أتأمل لفترة طويلة وأنا لاهث ومضطرب الماء الاسود أتخيل الموجات الدائرية والعميقة على سطحه الاملس. ومن ثم خطرت في ذهني فكرة ان ايليان ربما تركت نفسها تنزلق بواسطة الطريق الترابي الصغير الذي يتفرع عن الطريق العام لتصل الى الحافة بمستوى الجسر.

أقحمت نفسي بشكل أو بآخر في القضية أفتش عن أثار حديثة على الصلصال أو داخل العشب، نقبت بين اشجار الصفصاف والايك الممتدة بمحاذاة النهر. كنت اسبر الاغوار في الظلام وفي العمق الموحل مرتاباً وآملاً في الوقت ذاته في العثور على البقعة البيضاء المتحركة لجسد امرأة غارقة حديثاً اوقفت حركتها مجموعة من الاغصان.

يترك الصيادون هنا احياناً قواربهم المسطحة وهي موثقة باوتاد مغروسة على ضفة النهر. ومن الجائز ان تكون قد استخدمت واحداً منها وتركته ينحدر في مجرى النهر كي يجنح امام منطقة تجمع القوارب. ولكن في ذلك اليوم لم يكن هناك أي قارب بل ربما لم يعد

هناك قارب!

لبثت جالساً لفترة طويلة على الارض قرب ضفة النهر ليس بعيداً عن الجسر وركبتاي مطويتان عالياً ورأسي بين يدي وأنا فريسة لرعشات لا يمكن السيطرة عليها. كانت الساعات تمر واصبح الوقت متأخراً الآن لعمل شيء ما. كان يبدو على البدر وكأنه يضحك ملء شدقيه ويهزأ بي صراحة ولسان حاله يقول:

«ابحث! ابحث! لقد مرت من هنا انك كشاف الغابة الملعونة..»

ولدى وصولي الى داري كان ضياء الفجر يغزو السماء الشاحبة. وأشجار حزيران العالية والاعشاب البرية النامية فوق الارض الخضراء وحفيفها يسمع بفعل الرياح.

كان المنزل ساكناً وهادئاً. توجهت مباشرة نحو غرفة ازهار الغليسين التي لا بد وان كريستيان قد اعادت ترتيبها فور خروجي، حيث سُحِب غطاء الموهير الموجود على السرير دون ثنيه. وأعيد وضع لعبة الورق داخل علبتها على طاولة السرير وتحت المصباح.

أما طاولة العمل فقد نُظفت تماماً من كل الفوضى والاوراق والمعاجم، ولا بد ان الالة الكاتبة وحقيبة القماش الحمراء قد وضعتا في مكان ما مما يحمل على الاعتقاد ان هذه الغرفة لم تشغل من قبل قط. الا ان اللوح الزجاجي للنافذة كان مهشماً على هيئة نجم مع بعض من بقايا الزجاج المتناثر على البساط.

لبثت لفترة طويلة أتأمل هذه الغرفة الخالية المرتبة والنظيفة متفادياً ان اضيف اليها صورة ايليان المدماة الساقطة على فراشها المنكوث

كما لو كنت متمسكاً بالأمل الأخرق في العثور عليها هنا مجدداً كما تركتها في الليل .

كانت تحدوني رغبة جامحة في أن ابدأ مجدداً من تلك اللحظة وأمحو ساعات القلق هذه من مخيلتي .

ما زلت استمع الى حشرجاتها الضعيفة الشبيهة بتلك التي يصدرها حيوان جريح .

ـ دخلت الى المطبخ لكي أحضر لنفسي قليلاً من القهوة ، وعلى الطاولة كانت هناك بقايا فطور جيد لشخصين .

أما كريستيان فقد تركت بحروف واضحة بضع كلمات كُتبت بقلم الرصاص على مجموعة من اوراق الملاحظات : «اني بحاجة الى اجازة ترويحية!!! سأغادر بالسيارة مع دورافور. سأتصل بك هذه الليلة هاتفياً .

بقيت وحيداً وأنا أكتم سراً مخيفاً ومثقل بعقدة ذنب عصية على الفهم تشلّ في الوقت ذاته .

وعند حديثي مع كريستيان ودورافور بجهاز الهاتف كنت أتخفى وراء أكاذيب بائسة قادتني بعيداً ولفترة طويلة باتجاه طريق الرياء . .
«لقد تخلصت من المأزق . . وأخيراً قررت عدم الذهاب الى المستشفى ، لقد عادت الى بيتها . . »

كنت أترصد في الاسابيع التالية بتلهف الصحف المحلية : لم أجد ما يشير الى جثة انتُشلت حديثاً في نهر «لافلان» ولا جسد امرأة شابة وجدت مشوهة ومدماة بين احراش الاقليم أو على سكة القطار . .

ومرت الاسابيع .

لاحظت كريستيـان انـه لأمر مثير للعجب الا نسمع أخبار ايليان منذ أمد طويل. كان ذلك يثير فيها القلق من حين لآخر.

- أوه! إيليان لا تتغير وستبقى كما هي . ستأتي يوماً ما فجأة ودون سابق انذار.

- وماذا عن ترجمتها ؟ هل توقفت؟

في صبيحـة أحـد أيـام الآحـاد كنت أتسكـع كما يحلولي دوماً في سوق تجـارة الامتعـة المستعملة الذي يقام عادة مرة كل عام في ميدان القـريـة بمنـاسبة العيد القروي. وبين أكداس الآنية الفخارية وأشرطة الكـاسيت والكتب والـدراجـات الهـوائيـة والسـاعات والمقاعد الوثيرة والبـدلات والاحـذية أبصرت مجموعة من التنورات النسائية ترجع الى عصر جدتي وثياب رثة ملونة معلقة على حبل مربوط بين شجرتين.

ومن بين هذه الثياب استوقفني قميص نوم خفيف من القطن ذو لون بنفسجي باهت مغلق حول الرقبة مع شرائط حريرية حمراء ملتفة حول منطقة الخصر.

رفعتـه من الحبـل وتسـاومت على قيمتـه مع البائع الشاب وهو أحد السرّاق الصغار الذي كان ينشر بهدوء غنائمه من السلع المستعملة البائسة.

سألته ببراءة :

- أين عثرت على هذا القميص؟

أجابني قائلاً :

ـ أوه! أنت تعلم ان الالبسة تأتي وتذهب. سأبيعك اياه بخمسة عشر فرنكاً.

أقتنيت بخمســة عشـر فرنكاً قميص ايليان. انه ما يزال موجوداً هناك في خزانـة المـلابس. فقد تأتي إيليان يوماً ما للبحث عنه وعن حقيبتها الحمراء وآلتها الكاتبة.

من لمسات كرشنر

بعـد فتـرة وجيزة من وفاة زوجتي الاولى بحثت في صناديقي عن لوحة لها كان رسام من اصدقائنا قد رسمها لها بقلم الفحم.

كنـا قد ذهبنـا ذلك المساء لتناول العشاء لدى برونو كرشنر الذي كان جارنـا آنـذاك في باريس ولم يكن بعـد قد اكتسب الشهـرة التي يحظى بهـا الآن. وعقب تنـاول طعـام العشـاء صعـدنـا الى مشغله لمشـاهـدة لوحـاتـه الاخيـرة ولبثنـا فتـرة طويلة نشـرب ونتبادل أطراف الحديث. كان هناك لوسيان ونيكول وفابيان..

حدث ذلـك في الشتـاء الـذي مثلت فيه ناديا في مسرحية «العم فانيـا» على مسـرح كارفـور. كم كانت جميلة ومثيـرة بوجههـا الطفولي الصغيـر المؤثـر وضفـائـرهـا المجـدولـة والمعقودة اطرافها على عجل بخيوط مطاطية!

وبينما كانت تروي لنا بطريقتها المتناقضة في الحديث والعصية على التقليـد والتي تتخللهـا قهقهـات صغيـرة قصصـاً طريفـة ومثيـرة

للضحك - أذكر انها كانت تتسلى في تلك الليلة بتقليد نيكيتا خروشوف - أخرج برونو الجالس أمامها على أريكة واطئة أو وسادة كبيرة دون أن يقول شيئاً صفحة من ورق الارش (*) وثبتها على مقوى خاص بالرسم بواسطة كلاّبات الغسيل. ومن ثم بدأ يرسم بقلم فحمي القسمات العامة لوجهها. وفي نهاية السهرة كان رسم الوجه قد اكتمل. شيء مدهش: انها ناديا كما أحببتها بشعرها وابتسامتها الرقيقة ونظرتها الجانبية ذات المسحة الحزينة والماكرة في الوقت ذاته وعينيها الكحلاوين اللتين كانت تنظر بهما بعيداً وتبدو وكأنها تعلم اكثر بكثير منا جميعاً..

بدأ برونو كرشنر مقتنعاً بعمله لانه صمم فجأة على وضع توقيعه مع التاريخ على الصورة قبل ان يثبتها بعناية بالمثبّت. ومنحنا إياها مع المقوى الاخضر. كان اهداءً نابعاً من القلب، ولم أكن اشك في حينه ان هذه الصورة المرسومة بالقلم الفحمي كما هي الحال بالنسبة للاعمال الكاملة لكرشنر سوف تحظى خلال سنوات عديدة بقيمة لا يمكن تقديرها.

ومن العجيب ان هذه الصورة الجذابة لناديا لم تخرج من صندوقها قط منذ زواجنا خلال تنقلاتنا المتتالية حيث اختفت فيما بعد بين الاعلانات المسرحية والنقوش الحجرية المختلفة والصور المكبرة.

وعندما كانت زوجتي على قيد الحياة وحيث لم نكن نفارق بعضنا بعضاً قط وكانت كل يوم وكل ساعة امام عيني انظر اليها بدهشة

* الارش - ورق خاص تشتهر به منطقة جبال الفوج الفرنسية.

فلم أكن أشعر بحاجة الى تأمل صورتها رغم انها كانت رائعة الجمال.

لقد كانت هي ذاتها شديدة التواضع وقليلة النرجسية على الرغم من كونها ممثلة، ولذا لم تكن تتحمل رؤية صورتها ملصقة على جدار.

والآن وقد رحلت ناديا ـ لن أذكر بأية طريقة شنيعة ـ سأضطر الى قضاء لحظات عصيبة بمفردي في هذا البيت المنعزل الضائع بين الغابات حيث كنا قد قررنا الاقامة نهائياً بعد تردد طويل.

ولكي أنسى وحدتي و أجد قليلاً من التسْلية من خلال الذكرى خطرت ببالي فكرة مع اقتراب الخريف وهي أن أقوم بالبحث مجدداً عن صورة ناديا. لقد سبق وأن وضعت لها إطاراً! في نيبيس وهي المدينة الصغيرة القريبة. وفي نهاية الاسبوع الذي يسبق «عيد جميع القديسين» قمت بتعليقها فوق خزانة الثياب المقابلة لسريرنا في غرفة نومنا.

لقد نجح باتريس تماماً في عمله، وصنع اطاراً على طراز ماري لويز بلون أخضر زيتوني محاط بخشب مذهّب.

وكان قد قال لي:

«ليس من السهل العثور على عمل من لمسات كرشنر».

وفي يوم الاحد التالي المصادف الرابع من شهر تشرين الثاني وقبيل الظهر قمت بزيارة مقبرة القرية الصغيرة حيث كنت قد تمكنت من الحصول على قطعة أرض وأقمت فيها سرداباً صغيراً للدفن ووضعت على قبر ناديا باقة من زهور الاقحوان بمناسبة عيد الموتى ولكن مع بضعة أيام من التأخير عن التقليد المتبع.

كانت أمي وأختي قد قدمتا معي وتناولنا الغذاء سوية في المنزل ثم غادرتا الى باريس.

كان الجو رديئاً في نهاية الخريف فالمطر لم يتوقف عن الهطول والعواصف تخترق المنزل وتنوح في جوانبه كافة.

أما التيار الكهربائي فكان ينقطع باستمرار متسبباً في كل مرة في إيقاف التدفئة.

واخيراً اضطررت الى الجلوس أمام موقد الصالون حيث أوقدت ناراً كبيرة من الحطب وكنت أقرأ صحيفة اللوموند عدد الأحد على ضوء الشموع التي كانت تهتز شعلتها من تأثير الرياح.

كانت كلاب الجيران تنبح في الليل ساحبة سلاسلها. فكرت في نفسي بتشاؤم قائلاً: «انها حقا لسهرة عيد جميع القديسين!» وفي وقت متأخر من الليل استمعت بوضوح الى صوت زجاج يتكسر في الغرفة الكائنة فوق رأسي مباشرة على الرغم من الاصوات والحشرجات التي كانت تملأ المنزل.

قلت لنفسي ودون انفعال مبالغ فيه: «اللعنة! لوح زجاجي!» أرغمت نفسي على الصعود الى الطابق العلوي وأنا ممسك بالشمعدان الصغير بيدي لكي أتأكد وربما لكي أسد الثغرات الحاصلة.

لقد اكتشفت جسامة الحدث فور وصولي الى الغرفة فقد كانت النافذتان مغلقتين وسليمتين غير أن صورة ناديا المؤطرة قد سقطت على ظهرها فوق الخزانة وقد تهشم زجاجها الى مئات الشظايا.

ولحسن الحظ لم تتضرر لوحة كرشنر غير ان شظية زجاجية كبيرة على هيئة مثلث بقيت معلقة بالاطار من القاعدة مخترقة وجه ناديا من ناحية الى اخرى. كان مشهداً مروعاً يشبه صورة التعذيب والقسوة الحقيقية لحب الايذاء.

أزلت الشظية الزجاجية المثلثة الشكل من الاطار والتقطت قدر المستطاع بعض الشظايا ورميتها في السلة. أعدت وضع اللوحة فوق الخزانة وجعلتها تستند الى الجدار وكانت عينا ناديا ما تزالان مليئتين بالخوف والألم .

استغرقت شيئاً فشيئاً في رقاد مضطرب وفي اثناء رقادي كان يبدو لي اني استمع الى صوت قاطعة زجاج ماسية تقطع لوحاً زجاجياً. ولكنه كان ايضاً صوت صرخة المعاناة التي تطلقها ناديا حيث كنت أرى أيدياً مجهولة تشوه وجهها.

وفي صباح اليوم التالي وقبل ان اغادر الى باريس غيرت طريقي باتجاه نييبس حاملاً معي اللوحة الى مشغل باتريس كي يضع لها الزجاج ثانية، وقد وعدني ان تكون جاهزة في نهاية الاسبوع. وتحدث اليّ قائلاً: «سأستخدم رباطاً اكثر قوة، وهذه المرة عليك استخدام حمّال أشد متانة لتعليق الصورة.

وبعد ظهر يوم السبت التالي ذهبت لتسلم لوحتي التي غلفها باتريس بعناية ووضعها داخل صندوق مع بعض الصحف وقدم لي علبة من الحمّالات ذات المقاومة العالية وذات رؤوس حديدية مطلية بالكروم بوسعها ان تحمل تمثالاً من البرونز زنة ثلاثة اطنان!

وضعت الاطار أفقياً وبتأنٍ داخل صندوق السيارة واغلقته بالمفتاح.
كان عليّ القيام ببعض الاعمال في المدينة كالذهاب الى المصرف الذي يظل فاتحاً ابوابه في نيبيس أيام السبت، والى البريد والمصبغة..

ولدى وصولي الى داري أخرجت الاطار من صندوق السيارة وصعدت مباشرة الى الغرفة ووضعت الرزمة على السرير وبدأت فوراً بنزع الاغلفة. وبمساعدة مطرقة جديدة ذات ذراع خشبية حمراء قمت مجدداً وبعناية بعملية تعليق جديدة في المنطقة ذاتها بالضبط أي فوق الخزانة المواجهة للسرير.

تراجعت خطوتين الى الخلف ولبثت أتأمل برهة وجه ناديا من خلف واجهتها الزجاجية. كانت تبدو ساكنة وقانعة داخل قفصها الذهبي.

توقفت العاصفة منذ عدة أيام مخلفة وراءها في المتنزه كومة من الاشجار المقطوعة والاغصان المتكسرة، الا ان الطقس السيء في عيد جميع القديسين استمر دون هوادة. كانت الليلة حالكة السواد وبهيمة وقطرات من المطر البارد تنهمر بلا توقف.

نزلت الى المطبخ القارص البرودة وأعدت تسخين بقايا الرافيولي(*) المجمدة على الطباخ الغازي. كنت قد أعددت طبقاً من الاجبان المنوعة وفتحت قنينة من نبيذ «بروبي» ورتبت كل ذلك في صينية ووضعت وجبة عشائي على الطاولة الواطئة أمام موقد الصالون.

---

* الرافيولي - ضرب من المعجّنات المحشوة باللحم.

لم يشاركني وحدتي سوى النار الخشبية التي تتطلب الانتباه المستمر.

كنت أعلم منذ رحيل ناديا ان الطريقة المثلىٰ لكي لا اغرق في الحـزن والجنـون الـذي قد يؤدي الى الاصـابـة بالكـآبة هي أن أرتب وحدتي واختارها بدلاً من خداعها بكل ما أوتيت من قوة بتسليات وهمية ساذجة لا طائل منها وأنا أعرف مقدماً مذاقها المرُّ. ولكن هذا لا يمنع - ان في هذا المنـزل الخشبي الـذي عشنـا فيـه قبـل بدايـة معاناتهالمن لحظات نادرة من السعادة التي لا تنسىٰ، كان كل مكان وكل شيء وكل لحظة فيه تحملني الى التفكير بناديا.

ناديـا وهي ترتـدي جواربهـا الصوفية وتنزلق على درجات السلم الخشبي متشبثـة بالـدرابـزين . . ناديـا وهي جالسة على مغسلة الممر رافعـة تنـورتهـا . . ناديـا وهي تقلب المنضـدة وتلتقـط نثـار الـدجاجة البيـوضـة المصنـوعـة من الخـزف وتقـوم بنفسهـا بتمثيل دور الدجاجة البيـوضـة وهي مقـرفصـة على البســاط تصفق بجنـاحيهـا وتطلق القهقهــات . . فنـاديـا حاضـرة في كل زاويـةٍ من هذا المنـزل الكبيـر الخالي، وناديا ليس لها بديل.

في تلك الليلة وبينمـا كنت اكمـل تنـاول قطـع الـرافيـولي التي بردت تركت لافكـاري العنـان للتـوغل في الذكريات السعيدة ومشاهد الاعيـاد اليـوميـة. كنت اردد باستمرار كما هو الحال في كل ليلة منذ ما يقرب الشهرين قائلاً: «اذا كان ما يزال هناك مكان في الارض استطيع العيش فيه فهو هنا في هذه الدار وليس في مكان آخر على الاطلاق».

كنت مستغـرقـا في تأمـلاتي المعـزّيـة هذه عنـدما استمعت في

البـداية الى صوت منخفض ما برح يزداد قوة متجـاوزاً فرقعـة النـار الخشبيـة وصـوت المطـر المنهمـر على السطـح المصنوع من الآجر، ونبـاح كلاب الجيـران التي كانت تجـر سلاسلهـا ، لقد استمعت بدقة أكبـر الى الانين الحـاد ذاتـه لنـاديـا المعذبة ، تلك الصرخة الممزوجة بالماس والدم التي كنت قد استمعت اليها سابقاً في حلمي ، غير أني لم أكن نائماً ولا حالماً في هذه المرة .

صعدت بلا ضجة الى الغرفة حيث بدا لي ان الأنين كان صادراً من هنـاك . فتحت البـاب بهدوء فلم أجد شيئاً أو أحداً . انه الصمت . ومن عتبـة البـاب أضأت المصباح الكبير القريب خلف المكتبة وبقيت مصعـوقـاً من هول الصـدمـة أمـام هذا المشهـد الذي لا يصدق ، فقد كانت لوحة ناديا ما تزال في مكانها فوق الخزانة غير ان زجاجها كُسر مجدداً .

ويمكننـا القـول إن الـزجاج قد تهشم داخل اطاره كما لو أنه كان متأثـراً بالتجمـد وتكسـر الى عدد لا يحصى من الشظـايـا ، لقـد كانت مثقوبة بحجم قطرة دم متمركزة وسط جبهة ناديا تماماً وكما حدث يوم وفاتها .

اقتـربت وأنـا أرتعش ومن خلال المشبـك الـزجاجي مدّت ناديا وجههـا الجميـل المشطب باتجـاهي ورفعت نحـوي عينيها الرصينتين المليئتين بالحزن والعتاب . لم أرها قط بمثل هذا الحضور وبمثل هذه المعـانـاة . كان أمـراً لا يمكن تحمله . رفعت اللوحـة دون اتخـاذ احتيـاطـات تذكـر وذهبت لرجّهـا فوق سلة الاوراق فتسـاقـط الغـلاف

الـزجـاجي كمـا يتسـاقـط الصقيـع . لم يصب الـرسم بأي اذى فقـد استعادت ناديا جبهتها الصقيلة وعينيها الرقيقتين وابتسامتها الشاحبة .

وفي تلك الليلة حلمت مجـدداً باحـلام غريبـة بصـور متـلاحقة غريبة مرت في مخيلتي في اثنائها كنت ارى ناديا تهرب على زلاجات التزحلق على الجليد على طول زقاق بحري متجمد في مشهد طبيعي لشتـــاء نرويجي . كنت ارى ناديـا وهي موثقـــة المعصمين والكعبين تتخبـط وتبكي على كرسي هزاز من القصب . كنت ارى ناديـا واختهـا الشابة جالستين أمام مائدة طويلة على رصيف مغطى بالثلج .

كانتـا ترتـديـان وزرتيهمـا الملونتين وتقطّعـان رؤوس البيض نصف المسلوق المـوضـوع داخـل آنية بآلة مدورة ومسننة ، وكانت تخرج من كل بيضـة مقطّعـة شبكة من الدم . وكان نيكيتا خروشوف يمر باستمرار في نهاية الرصيف يمسك ملعقة مزدوجة من الفضة .

ومنذ ذلك اليوم بل منذ تلك الليلة فهمت أن ناديا لم تكن صورة لتسجن أو فراشـة لتعلق في خزانـة زجاجية . لقد كانت كائناً حراً أحب الـرواح والمجيء حسب ارادة الـزمان والمكان . انها رقيقة وشفافة مثل غبـــار النجـــوم . ومن المؤكـد انهـا قد كرهت فكـرتي بوضعهـا خلف الزجاج ! وهي التي غالباً ما كانت تشعر بالبرودة !

مرت السنون وتغيرت حياتي ، وعلى العكس مما كنت أتوقع فقد تزوجت مرة اخـرى وأقيم الآن بالقـرب من (ليبورن) في منطقة جيروند مع زوجتي الثـانيـة وطفليّ . بعت منـزلي في (نيبيس) منـذ مدة طويلة ولكني احتفظت بقطعة الارض في مقبرة القرية .

منـذ وقت قريب ، كنت قد قبلت وبمنـاسبة وفاة أحد أفراد عائلة ناديا بفكرة إيواء نعشه الذي لم يكن أحداً يدري ما يفعل به . وأخذت على عاتقي مهمة انتزاع البلاطة الخارجية وفتح السرداب .

انـه ليس بالعمـل السهـل فقـد أضطـر المقاول الى جلب عربة رافعـة ثبتت على ركـائـزهـا من العجـلات المطاطية على حافة القبر . وعنـدمـا أخـذت البـلاطـة الاسمنتيـة الممسـوكة بالكلاّبات بالارتفاع والتأرجـح في نهـايـة السلك الفولاذي وعندما وقع نظري داخل اللحد المفتوح وجدت السرداب خالياً ومغطى بالشظايا الزجاجية .

جنازة اجاثا

الآن علمت لمـاذا أصـررت بقـوة على حضور جنازة اجاثا حيث لم يكن لدي شيء أفعله هناك ولم يكن لدي شخص أراه كما لم يوجه لي أحد الدعوة بالحضور.

لقـد فهمت على الفـور ان هذه المراسيم الجنائزية كانت بمثابة موعـد حددتـه لي عبـر الطريق الملتوية لاصدقائها الهندوس الذين لم تكن لديهم النية القيام بالرحلة قط.

وكقـاعـدة عامـة فاني لا أحضر الجنائز ولي طريقتي الخاصة في «تكـريم المـوتى» كمـا يقـال، أو في تقـديم التحية الاخيرة لهم. انها طريقة تتنافى والقدسيات بعض الشيء وغالباً ما تكلفني استياء البعض وحينئـذ يُقـال عني: «فـرانسـوا لم يكلف نفسـه عنـاء ارسـال زهـرة واحدة»! . أو قد أتلقى مكالمة هاتفية من أخي الذي لا أراه مطلقاً وهو يقول بعنف: «كان عليك السفر لحضور مراسيم تشييع عمتك ماري. أنت لم تزرهـا كثيـراً في المستشفى». غيـر أنه لا يعلم وليس هناك من

يعلم ان العمـة ماري كانت في داري يوم وفـاتهـا وانهـا لم تكن بحاجة الى الزهور والصلوات.

مرت سنون طويلة لم أرَ فيها اجاثا، لقد اختفت من حياتي بعد فتـرة وجيـزة من ليلة الهلع تلك عنـدمـا أفلحنا في الخروج من السيارة التي التهمتهـا النيـران ووجـدنا انفسنا متلاصقين الواحد بجانب الآخر داخـل حفـرة على قارعـة الطـريق العام ونحن نتبادل القبل والهمسات ونـداعب بعضنـا بعضاً ووجهانا متقابلان وكنا نقول: «نحن الاثنين لن نفتـرق.. الى الابـد.. ولا حتى ليـوم واحد..» لكنها رحلت بسرعة (يعلم الله وحـده أين هي) تتـابـع بخفـة حياتها البهلوانية على الارض الواسعة وبوسعنا ان نقول انها كادت تلمس الارض.

غالبـاً ما كنت أفكـر بهـذا الحادث في تلك الليلة التي كنا قد فارقنا فيها الحياة. غير ان عهدنا بالوفاء بقي ساري المفعول.

حدثتني عن طفولتها في قرية في جنوبي فرنسا التي من المفترض ان تدفن فيها. كانت تعـود الى هنـاك احيـانـاً وبسرعة لرؤية ابنتها.

«سيسعدني كثيراً الـذهـاب سويـة الى هنـاك يوماً ما! سترى ابنتي كم ان الشبه كبير بيننا وستـرى الشجـرة في الميدان، أنت الذي تحب الاشجار. إنها أجمل شجرة في المنطقة. والمقبرة.. انها حقاً لمقبرة برية تغزوها الاعشاب التي ترتفع بمستوى أعلى من القبور في الصيف»

الا أن شيئـاً من ذلـك لم يحـدث. كنت أرتحـل آنـذاك لقضـاء اعمـالي الضـروريـة مستقلاً الطائرة الى المدن الاجنبية الكبيرة كلندن وزيوريخ واستوكهولم لكي التقي بزبائني هناك. أما الآن وقد تقلصت

التزاماتي فلن اضيع مثل هذا الموعد في منطقة «لادروم»! .

اقتنيت منذ فترة قصيرة سيارة انجليزية الصنع لا ينقصها سوى السير على الطريق العام . تركت مكتبي باسرع وقت ممكن قبل حلول الزحام الشديد مساء الجمعة وكنت قد أجريت حساباتي ان بوسعي النوم في مدينة فالانس أو مونتيليمار فيما لو عجّلت قليلاً . وصباح يوم السبت لن يتبقى لي سوى البحث عن هذه القرية الضائعة عبر طرق منطقة «بروفانس» الضيقة .

كنت استعيد دون نظام طوال الرحلة ذكريات أجاثا وصورها الكثيرة والعزيزة جداً عليَّ في ذاكرتي . كنا قد التقينا في محطة ضخ البنزين لمطار أورلي بينما كنت أفحص مستوى الزيت في السيارة الغريبة التي كنت امتلكها انذاك ، لاحظت هذه المرأة الشابة التي كانت تدور بحيرة في المحطة بفستانها القصير الاسود وركبتيها العاريتين وهي تحمل حقيبة من القماش الخام معلقة بحمّالة . وعلى حين غرة رأيتها تنحني على محرك السيارة من الجهة المقابلة لي وفي الجانب الآخر من غطاء المحرك المرفوع .

وقالت فجأة :

- انها مدروسة جيداً سيارة «الفاسيل» هذه . انها طراز جيد ، أليس كذلك؟ .

رفعت عيني الكبيرتين المندهشتين باتجاه العينين الكبيرتين الخضراوين لهذه الامرأة الشابة التي كانت تتحدث الي بصوت طفلة صغيرة وبلهجة ميكانيكي خبير . كان وجهها شديد الشحوب تضع على

رأسهـا وشـاحـاً من الحرير الابيض معقوداً حول الرقبة برزت منه بعض الخصـلات النـاعمة من الشعر الاشقر المائل الى الحمرة . كانت ذات شفتين رقيقتين مطليتين بلون وردي ، تبتسم لي هادئة واثقة من سحرها ومن تأثيرها .

لم أحـاول البحث عن السبب الـذي دفع بها الى هنا في محطة المطـار هذه وهي لا تحمـل من الحقـائب في يدها سوى تلك الحقيبة القماشية المتدلية .

اقتـرحت عليهـا ببسـاطـة ايصـالهـا الى باريس . قبلت العرض فوراً . وحيث كنا مبتهجين سوية فقد اصطحبتها الى داري .

لم تتـوقف اثنـاء سيـرنـا على الطريق العام عن اسدائي نصائح في القيـادة كقـولهـا : «تحـول الى السـرعـة الثـانيـة قبـل اشتعـال الضـوء الاحمـر! . . لا تنحنِ هكـذا على مقـود السيـارة!» . وعنـد وجودنا في المصعـد اقتـربت مني فجأة وقبلتني طويلاً . وحين توقف المصعد في الطـابق الخـامس وتأخـرنـا في الخـروج أقترحت عليّ قائلة : «بوسعنا النزول والصعود ثانية اذا رغبت بذلك؟»وهذا ما فعلناه .

وحال دخولنا ذهبنا للاستحمام سوية بماء ذي رغوة معطرة واتذكر انهـا قالت لي فوراً وهي تخلع ملابسهـا متجـاوزة أي شكل من اشكال الحشمة : «باستطاعتك ان ترى بانني شقراء حقيقية غير مزورة!»

لقـد أحببت كثيـراً ونحن في سريـري الكبير ذلك التجويف العميق والجميل الذي تكون تحت رقبتها ما بين الكتفين .

ومنـذ الليلة الاولى هذه عرفت انني ساحـاول الاحتفـاظ باجـاثا

بقربي أطول فترة ممكنة وان هذا الامر ربما لن يكون سهل المنال. كنت قد اقتنيت لها فستاناً فاتح اللون وحذاء. وها هي الآن قد وافاها الأجل.

وعلى طريق الجنوب العام استذكرت في تلك الليلة اللحظات الاكثر سعادة والاشد اثارة والاكثر أهمية التي قضيتها معها كليلة العيد تلك التي اصطحبتني معها عند اصدقائها الموسيقيين في صالة خلفية لمتجر هندي. لقد اكتشفت هناك على اصوات مزمار الكيناوة مباهج الحب الهندوسي الممزوج بمباهج الغليون ذي الاعشاب المعطّرة ورحلتنا السريعة الى امستردام اذ تبين لي انها كانت تتحدث اللغة الهولندية بطلاقة. لقد كانت المرة الاولى التي تركب فيها طائرة، لقد امدتها عملية الاقلاع بسعادة غامرة وقالت مندهشة:

«انها أفضل من المصعد!» ورحلتنا السياحية داخل سيارة الاسعاف ونحن نمسك يداً بيد أثر تلك الحادثة التي وحدتنا بقوة وأدت الى انفصالنا.

لم ترغب أجاثا قط العيش معي فعلاً ولم تكن تريد «الاستقرار في الحياة».ومن خلال مرورها على الارض في السنوات التي توالت لم أتمكن فيما بعد سوى العثور على اثار تافهة والتقاط اصداء واهنة ومؤلمة عبر القيثارات والمزامير الهندية لاصدقائها الموسيقيين.

كنت اذهب أحياناً لرؤيتهم في المتجر ضمن مسعاي اليائس في البحث عن أجاثا. كانوا يتحدثون الي بمقاطع قصيرة جداً تتعلق باختفاءات مثيرة وبرحلات طويلة الأمد وإخفاقات مؤقتة واعتقالات

مأساويـة، ومن ثم حدثـوني عن ذلـك المـرض الشنيـع الذي جعلها تحتضـر ببـطء في مستشفى أحـد سجـون مدينـة ليون مخنوقة بلسانها حيث لم يكن بالامكان ايقاف التورم.

لدى وصولي الى مدينة اورانج الواقعة في مقاطعة فوكلوز حيث توقفت أخيراً للاستراحة حاولت جاهداً وأنا داخل غرفتي في الفندق من أجـل حب أجـاثـا أن اتصور بالتفصيل عملية احتضارها الرهيبة: ذلك الظلم الفائق وتلك الاهانة الخبيثة التي استهدفت الرقة واللطافة وذلك العذاب المفروض من الجسد على أعظم ذهن ثاقب في العالم وعلى الروح الاكثر كياسة.

كان ذهني مليئاً بصور اجاثا منذ الصباح وانا أشعر أني شديد القرب منهـا مجـدداً بعـد هذه الـرحلة بمصـاحبتهـا. كانت شاخصـة أمامي بضحكاتها ويكلماتها وبهيأتها بحيث لم أُفاجأ قط بوجودها في الصف الاول من الحاضرين عند وصولي المتأخر جداً الى مراسيم الدفن.

كان في هذه المقبرة العشبية حوالي اثني عشر شخصاً من الزعية واقفين تحت ضياء الشمس أمام قبر حديث العهد يحيطون براهب رث الثيـاب يرش النعش بنـزاهـة. وبين هؤلاء كانت اجاثا بفستانها الاسود القصيـر الـذي ارتـدتـه في اليـوم الاول من لقـائنـا مع حقيبتها المعلقة القمـاشيـة وشـأحهـا الحريري على رأسها. اقتربت دون ضجة، بيد أني بقيت بعيـداً بعض الشيء لا أرى سواهـا وأنـا سعيـد مائـة مرة اكثر بعثـوري عليهـا على حافـة قبـرها من عثوري عليها تحت غطاء محرك سيارتي «الفاسيل».

لقد اصبح كل شيء واضحاً الآن!

كان يبدو عليها الضجر الشديد وهي مكرهة على المشاركة في عرض أحمق وبخاصة في مقاطعة خارج العاصمة! ولكنها ما أن لمحتني حتى انفرجت اساريرها. حركت ريح خفيفة بعض خصلات شعرها الاشقر. وبينما أستمر الكاهن يهمس صلواته باللغة اللاتينية اشارت الي بيدها سراً كأني بها تريد أن تقول:

«شكراً على قدومك!.. ولا تذهب.. انتظرني»..

أنزل الحفّارون النعش داخل الحفرة وطفقوا يوارونه بالتراب. تبادل الحاضرون الماء المقدس بالتتابع وتقاطروا أمام القبر. توقف القسم الاعظم منهم للحظات معدودات أمام أجاثا وهي بلا حراك بالقرب من الكاهن وهمسوا في اذنيها كلمات التعزية. قبلها الكثيرون، ومن المكان الذي كنت فيه استمعت الى قروية تقول لها ببساطة وهي تحبس دموعها:

- عزيزتي اجاثا.. نحن نحبك كثيراً، كما تعرفين.

اجابت أجاثا قائلة:

- نعم أعلم ذلك، شكراً يا سيدة غودية.

وبعد ان غادر الحضور المكان حتى الكاهنُ لبثت أجاثا برهة وحيدة صامتة أمام القبر وبين الحفارين الذين كانوا ينجزون عملهم. لم تكن تبكي ولم أتجرأ على الاقتراب منها، لكنها تقدمت نحوي فجأة وهي تطوي الطريق بين الاعشاب العالية التي تغزو المقبرة. امسكتني من ذراعي وجذبتني بخطوات واسعة باتجاه القرية، قائلة:

ـ تعال. اريد أن أريك الشجرة والمرْج على ضفة النهر.

لم أطـرح أي سؤال، كنت بكـل بسـاطـة في غايـة السعـادة باستعـادتهـا كما عرفتها، في حين اعتقدت انها رحلت الى الأبد. بدا لي ان المـوت قد زادهـا شبـاباً عشر أعوام. وكان صوتها الشيء الوحيد الذي تغير فيها.

قمنـا بصمت بدورة حول شجـرة التـوت الاسود الرائعة والموغلة في القـدم التي تستحق تمـامـاً ان تدرج في قائمـة الشـرف الملكيـة. وضعت أجـاثـا يدهـا بيـدي بعـد ان مررتهـا تحت ذراعي فاستعـدت العـذوبـة الـرقيقـة لاصـابعهـا وراحـة يدهـا، كمـا كان الأمر في عربة الاسعاف، وخطواتنا متناسقة كما كان الحال على رصيف امستردام.

كان ميـدان القـريـة خاليـاً وجلسنـا على صخـرة البئر تحت ظل شجرة التوت ومن ثم تشابكنا فجأة وتعانقنا. كنت أشعر تحت اصابعي وتحت شفتي بجلدها الرقيق الهش في منطقة الصدغين ولمست ذلك الـزغب الاشقـر الـذي يغطي رقبتهـا من الخلف، لقـد استعدت نكهة شفتيها ولسانها الحاذق الذي حاولت مخيلتي تشويه صورته بسبب الاشاعات.

كنت شديـد التأثـر الى درجة البكاء تقريباً أحبس أنفاسي ولا أعرف سوى تكرار كلمة: «أجاثا، أجاثا، أجاثا..».

وعلى الرغم من ذلك أضفت قائلاً وأنا أقبلها مجدداً: «إسنان لبنيةً».

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ أعني : «أسنان صغيرة» الا تذكرين؟

لم تتذكر. ضحكت وقبلتني مجدداً. لقد كانت جائعة. توجهنا سوية وأيدينا متشابكة الى القرية المرتفعة ومن ثم تسلقنا ممراً طويلاً تحيطه الاشجار الشامخة.

تحدثت اجاثا قائلة: «اني اعرف مكاناً رائعاً نتناول فيه الطعام يحوي بعض الغرف! هل تمتلك نقوداً؟

كانت لدي نقود. وصلنا الى منزل ريفي عريق ضائع في الزمان والمكان مزين باعلانات عن الاطعمة. لم يكن هناك زبون في الداخل بل أربعة عشر صبياً لخدمتنا.

تناولنا اطعمة من مختلف الاصناف وانتهينا بزجاجة من نبيذ المورغون!.

همست أجاثا المشرقة بالفرح والممتلئة المعدة قائلة:

ـ القهوة، سنحتسيها في الغرفة.

كما لو انها لم تذق طعاماً منذ ستة اسابيع!

وابان تناولنا وجبة الطعام لم نتوقف عن تبادل نظرات الشوق ونلمس وجوه بعضنا كما كان كلانا يداعب اصابع الآخر فوق الطاولة. يا أيتها السماء لقد نفد صبري!

كانت الغرفة العالية ذات السقوف العريقة والباردة المغلقة بنوافذ خشبية واسعة تتناسب مع حجم القلعة. والسرير يلاءم وسعة الغرفة. كان بالامكان وضع ثماني نساء بحجم اجاثا على هذا السرير! ولكن واحدة فقط تكفيني:

انهـا تلك التي ارسلتهـا لي السمـاء بعينيهـا الخضـراوين الـواسعتين واسنـانها الصغيرة الاثنين والثلاثين وضحكاتها التي لا تعد ولا تحصى وتجويفها الفريد الكائن في نقطة التقاء الكتفين.

اما المغطس فقـد كان بحجم السـرير ننتقل بينهما ضاحكين. وكنـا نلهـو تحت أغطيـة السـرير الزرق أو في مياه المغطس الخضراء. لقد بذرنا جبالاً من المناشف الاسفنجية ونسينا شرب القهوة!.

لم نكن نتحـدث كثيـراً لاننـا لو فعلنـا ذلـك لتحـدثنا بافراط. كنت اعتقد ان امامنا وقتاً كافياً هذه المرة.

وعنـدمـا بدأ الليـل يسـدل أستاره وأخذت الظلمة تغطي سهول القلعة أقتربت أجاثا من احدى النوافذ العالية وفتحتها على مصراعيها.

ظلت صامتة فترة طويلة من الزمن مستندة الى هذه النافذة وهي عاريـة تتعـرض لريـح الليل الباردة. عمَّ كانت تبحث وهي تنظر بعيداً الى السهل؟ أية ذكريات لحياة أخرى؟ أية مواعيد تترقب قدومها؟ هل ستهرب مني فجأة مجدداً من النافذة كي تتوارى في هذا الريف الشاسع؟

كلا. استدارت وعادت الى الفراش. أخفت رأسها المذّهب في تجـويف كتفي وطفقت تبكي بهـدوء وترتعش بزفرات صغيرة ونحيب. تركتهـا تبكي لفتـرة من الزمن وأنا أداعب رأسها ورقبتها،وأخيراً اعتدلت بعض الشيء وجففت دموعها بذيل غطاء السرير الازرق، وقالت:

- «شكراً على مجيئك».

قبلتني بهدوء للمرة الاخيرة وهي تداعب وجهي بأصبعيها.

وقالت لي مجدداً:

ـ «علي العودة الآن ولكني أعدك اني لو رزقت بطفلة منك فسأدعوها أجاثا».

ومن ثم توارت عن الانظار، وتركتني أتخبط بشكوكي.

انشودة البحارة

بعـد ان انتهت من تنـاول العشاء عشية حفلتها الموسيقية طلبت ان تعمل بمفردها في قاعة البيتارة الكائنة نهاية المتنزه، وهي القاعة ذاتها التي كانت ستعزف فيها في اليوم التالي على آلة البيانو التابعة للفرقة.

لقـد رأينـاها تترك طاولتها وتجتاز قاعة الطعام وتخرج من الفندق الفخم تقودها خطوة خطوة تلك السيدة الغريبة (اعتقد انها كندية) التي كانت تقيم معها في مدينة بوسطن الامريكية وتقوم لها بمهمة السكرتيرة والمـرشـدة والممـرضـة في الـوقت ذاتـه وهي عشيقتها تقريباً كما كان يقال، حيث ترافقها في رحلاتها وجولاتها وتقود السيارة البيضاء الفارهة التي لاحظناها جميعاً أمام مرأب الفندق:

بدأت أديث كرول تفرض سمعتها عازفة منفردة حينذاك في عالم المـوسيقى العـالميـة الصغير ليس لكونها بصيرة (ففي هذه المرحلة لا يعـد عازف البيـانـو الاعمى شيئـاً ملفتـاً للنظـر) بل لانها كانت تمتلك مواهب حقيقيـة فذة. وقصـاصـات الصحف التي كانت قد جلبتها من

نيويورك وباريس ولندن المعلقة في صالة الفندق قدمتها على أنها «واحدة من الاعمدة الحقيقية للفن الموسيقي المعاصر». والعرض الوحيد الذي كانت قد قدمته في مدينة سالزبورغ النمسوية عُدّ حدثاً. أما الاسطوانات التي كانت قد سجلتها في الولايات المتحدة الامريكية وبخاصة كونشيرتو جريج فقد تحولت الى نماذج موسيقية يقتدى بها.

لم يكن السبب وراء قدومي الى فندق سيروز حضور حفلة عزف البيانو المنفرد لأديث كرول التي كنت أجهل حتى اليوم أسمها، بل لان طبيب العيون الذي قرر اجراء العملية لي في عيادته الكائنة في سومور اثنى أمامي على هذا الفندق الفخم الرفيع المستوى الذي افتتح منذ فترة قصيرة في المنطقة، ولم يوضح لي ان مالكي الفندق كانوا ينظمون حفلات موسيقية ممتازة لشغفهم بالموسيقى لجذب زبائن مولعين بها من شتى أصقاع العالم. وهكذا تمكنوا من اقتراح أسعار خاصة ابتداء من حزيران لغاية أيلول تتضمن الاقامة وحضور الحفلات التي لاقت نجاحاً لا بأس به. وقد سألوني فور وصولي.

- ستحضر بالتأكيد حفلة ليلة الغد؟ هل تعلم اننا نحظى بشرف استقبال أديث كرول؟

لم يكن هناك ما يستدعي تهرّبي، وخصوصاً أنني لم أخطط قط لقضاء ليلتي السبت والأحد.

وخلال فترة العشاء وأنا جالس على مائدتي المنعزلة لم أتوقف عن متابعة سلوك وتصرفات العازفة البصيرة الشابة التي كانت تتناول

عشاءها على طاولتها الخاصة بصحبة مرافقتها.

لقد اعجبت بجمالها الهادىء، بوجهها الذي يشبه تحفة من الخزف الصيني وعينيها الزرقاوين الواسعتين القريبتين من البياض اللتين لم تكن لتستطيع رؤية شيء بهما، وحركاتها الدقيقة والمترددة في الوقت ذاته وهي تتناول كسرة خبز من السلة أولكي تمد قدحاً نحو الدورق البلوري طالبة شيئاً من النبيذ.

قالت السيدة:

- لا تشربي كثيراً يا أديث.

لقد فوجئت بنوع العلاقة الغريبة التي تربطهما والمتمثلة بالتسلط والخضوع المتبادل. وبالطريقة التي تطلب بها أديث الى سكرتيرتها وهي تنهض من مائدتها ان تضع على كتفيها الشال الذي تركته يسقط، فضلاً عن الاسلوب الذي وضعت فيه «السكرتيرة» الشال على كتفي العازفة.

وعندما اجتازت القاعة للخروج وهي تتأبط ذراع صديقتها الكندية مرت تماماً من أمام طاولتي ولامست الغطاء بفستانها الحريري. تفحصتها عن قرب بشيء من الوقاحة آملاً (لا أدري لماذا) ان تكون قد رأتني على الرغم من ذلك، فابتسمت لها.

تابعت بنظراتي جسدها النحيف الذي كان يبتعد عني صوب الصالة مع حفيف خفيف يصدر عن أحذيتها الشبيهة بأحذية راقصات الباليه الجذابة وهي تسير على البلاطات الصخرية.

وفي وقت متأخر من الليل وبعد فترة طويلة من صعود نزلاء

الفندق الى غرفهم خرجت للتنزه . كانت ليلة شهر حزيران جميلة وحارة والسمـاء الخـاليـة من القمـر شديـدة العتمـة . ولكني كلما تقدمت في السن أخـذت أرى بصـورة افضل في الظلام وربما أفضل مما أرى في وضح النهار، وهذا ما كان قد بينه لي الطبيب الذي قال انه عرض من اعراض مرض نزول الماء الابيض المتطور.

كانت هناك اشجار ضخمة من الصفصاف المجلوب من ايطاليا وأرزيـات مائلة الى الـزرقـة وبعض اشجار الارز الضخمة يعلم الله من أين جيء بها تتجه بقوامها الاسود نحو السماء.

كنت اسيـر بخطى وئيـدة على الممرات الرملية الدائرية الا انني أعلم جيداً الى أين كنت ذاهباً: ابحث عن بيارة البرتقال التي التمسونا عدم الـذهـاب اليها هذه الليلة وهو المكان الذي كنت اعلم ان العازفة الماهرة قد عزلت نفسها فيه كي تتهيأ لحفلتها .

وعند منعطف أحد الممرات على مبعدة من أرض خضراء واسعة اكتشفت تحت الاشجـارما يشبـه القصـر الصغيـر مبنيـاً من الصخـور البيض المخـرمـات بثقـوب مزججّـة ومضـاءة بشدة في الليلة الحالكة الظـلام . اجتـزت الارض الخضـراء وتقـدمت من دون ضجـة منجذباً للمـوسيقى التي كانت تهـرب من البنـاية وتنتشر بين الاشجار. أقتربت بخطى وئيدة من أحد الثقوب المزججّة المقطعة مربعات صغيرة . كان البيـانـو موضـوعاً على منصة مرتفعة في نهاية الصالة المضاءة بمصباح قوي مثبت على مسنـد عمـودي وهي موجودة هناك على ذلك المسرح الصغيـر جالسـة أمامي على مقعد ضيق أمام البيانو الطويل وحيدة أمام

المقاعد الفارغة المصفوفة ، وفي الاقل كانت تظن نفسها منفردة الا انني في الواقع كنت هناك بصحبتها .

علمت فيما بعد انها كانت تعزف مقطوعة انشودة البحيرة للموسيقار شوبان المثبتة في منهاجها لليوم التالي . ولكنني كنت، في تلك اللحظة معجباً بطريقة اداء العازفة اكثر من اعجابي بجمال وخفة المقطوعة . كانت تضع فيها الكثير من الحب والطاقة والاصرار والشغف! وتعيد كل مقطع لحني واحداً فواحداً بغية الحصول في كل مرة على نغمات اكثر اطراباً وتبذل جهوداً مضنية دون ان تقتنع بما تؤديه قط .

كان يحدث احياناً ان تتعثر في احد المقاطع الصعبة فتقوم بتحليله وتتدرب عليه وتعيده وكأنها عازفة مبتدئة في المدرسة حتى تصبح في نهاية المطاف مثبطة العزيمة أو راضية فتنتقل الى المقطع اللاحق . كان لدي انطباع بانني أشاهد معركة داخلية بين متطلباتها ومواهبها وأنا افاجأ على حين غرة باللحظة الاكثر صميمية للخلق الفني . كنت أنصت الى هذه الموسيقى في مخاضها كما لو كنت اشاهد ولادة تمثال تحت أزميل نحات .

لا أذكر كم بقيت من الوقت مسمراً هكذا ومندهشاً خلف زجاجة النافذة ، وبدأت تظهر إمارات التعب على هذه الشابة فتوقفت عن العزف وبسطت ذراعيها ببطء فوق رأسها وشبكت يديها خلف رقبتها . وكانت تنهض من حين لآخر من مقعدها محتفظة بيديها ممدودتين أمامها على مفاتيح آلة البيانو، ثم تجلس لتعزف بعض الوقت .

واخيـراً نهضت واغلقت البيـانـو كمـا لو كانت تريد الفات النظر لانتهـاء العـرض وانهـا لن تواصل العزف هذه الليلة، ولكن لمن كانت تقوم بهذه الحركة؟ تحركت بضع خطوات وهي تستند الى حافة البيانو ومن ثم عادت لتجلس على الجـانب الآخـر من المقعد في مواجهـة الجمهـور. مدت ساقيهـا أمـامها وقدماها تستندان على كعبيها ويداها متشابكتان على فخذيها.

كانت تنتظـر، ونظـراتهـا الخـاوية تبحث في الصالة الفارغة. سلورني الشـك فجأة: «انهـا ستـراني!» وشعـرت في حينهـا بالاحـراج حقاً فانا محرجٌ من أن أفاجأ هكذا متلصصاً ليلياً خلف زجاج النافذة. وبدلاً من أن أهـرب وأتـوارى بين اشجـار المتنـزه اتجهت نحـو البـاب الزجاجية ودخلت الى الداخل.

انتفضت بحيــويـة على صوت صريـر البـاب وصـرخت باللغـة الانجليزية دون أية دماثة قائلة: «أريكا! هذه أنت! أخيراً!»

همست قائلاً:

ـ كلا.. كلا.. هذا أنا.. كنت ماراً..

ـ ولكن من أنت؟ أين أريكا؟

تقـدمت بين صفـوف المقـاعـد حتى حافـة المنصـة واصبحت أمامها. كان بوسعي ان أضع يدي مفتوحتين على أحذيتها المصنوعتين من الجلد الاسود الجذاب، غير أني لم أفعل ذلك.

ـ أستميـحك عذراً يا آنسـة كرول.. أنني أحد نزلاء الفندق، كنت أتجول في المتنزه.. واستمعت اليك تعزفين.. لقد كنت رائعة..

فصاحت قائلة :

ـ كلا! لقد منعت ذلك! لا أريد أن يُستمع الي وأنا أعمل. لا أريد ذلك! لا يحق لك هذا!

كانت تبدو فريسة لموجة من الغضب المخلص والعنيف وهي تضرب بقدميها على خشبة المسرح وبقبضتيها على أعلى فخذيها، الا أن وجهها الجميل الشارد النظرات بقي مشعاً رائقاً وهادئاً وكأنه غائب. وكررت مجدداً (بلغة انجليزية حاولت ترجمتها قدر المستطاع):

ـ أين اريكا؟ الحقيرة! القذرة!

بدت لي وكأنها على وشك البكاء. وبعد برهة وفجأة اضافت قائلة بنبرة هادئة جداً:

ـ هل بوسعك يا سيد ان ترشدني الى غرفتي؟

سرت بهدوء الى جانب المنصة وصعدت الدرجات الدائرية الاربع الى المسرح. جلست بجانبها على مقعد البيانو وتركت كتفي يلامس كتفها لكي تشعر فعلاً انني موجود بالقرب منها وأنني على استعداد لمساعدتها بكل ما أوتيت من قدرة.

ـ ما أسم تلك المقطوعة الآخاذة التي كنت تتدربين عليها منذ برهة؟ لست شديد الولع بالموسيقى.. الا أني وجدتها مقطوعة مدهشة.

أجابتني بصوت طفولي مرح ورزين:

ـ انها انشودة البحارة لشوبان، القطعة الموسيقية رقم (٦٩). كان

شوبـان شديـد الشغف بايطـاليا . . وكتبها في ذكرى رحلته الاولى الى فينيسيـا عام ١٨٤٧م على ما أعتقـد. ولكنـه ربمـا تذكـر فيمـا بعد دير فالـدمـوزا تحت امطـار مايوركا! كي يؤلف انشودة البحارة في اسبانيا ! ربمـا يكـون قد خلط بين اسبـانيا وايطاليا . . على أية حال لا يمكن ان نلومه فهو بولوني . .

من فضلك هل بامكانك ان ترشدني الى غرفتي؟

- بالتأكيد سأقودك اليها.

أمسكت بيـــدهـا ولكن بدلاً من أن أنهض من على المقعـد كي أتمكن من إنهـاضهـا احتفظت بيـدها بين يدي لبرهة من الزمن ومن ثم بسطتهـا كمـا تنفـرج اوراق الـزهـرة. بعـدها رفعتها بالقرب من شفتي وطبعت قبلة على راحة يدها المفتوحة هذه..

سحبتْها بحركة فجائية وصاحت قائلة :

- كلا! لا أريد أن يُنظر الى يدي!

قالت بالتأكيـــد: «أن يُنظـر الى يدي» ولم تقـل «ان تُقبـل يداي» . بقيت حائراً لفترة وجيزة لكنها ما لبثت ان مدت إليَّ يديها الاثنتين وهما مفتوحتان الى آخرهما وقالت:

- انظر الى آثار جراحي.

واقول بأمانة إني لم اشاهد شيئاً. فاضطرت ان توضح لي:

- أليس بوسعك ان ترى؟ ما بين اصابعي وتحت راحة يدي؟ وبانتباه شديـــد توصلت الى تمييـــز بضعـة أخـاديـد تافهـة في أعلى راحتيهـا وبالضبط في بداية نمو الاصابع وهي اكثر بياضاً بعض الشيء من لون

جلدهــا الابيض، تُشبـه قطـرات النـدى التي ابيضت بسبب الجليـد الخفيف الـذي نشـاهـده في الصباحات الشتوية على اشجار الورد في الريف. وأوضحت لي قائلة :

ـ ان يدي صغيـرتـان بالنسبة لعازفة بيانو! حاولت دون جدوى خلال سنـوات وسنـوات تأديـة تمرينات عديدة الا أني لم أتوصل الى العزف على السلم المـوسيقي بكـامله. كنت انجـح بالكـاد في عزف العلامة المـوسيقيـة دو ـ لا. كمـا لم اتمكن من التـوصل الى العلامة السابعة! كان أمـراً فظيعـاً! خاصـة عندما أفكر ان بمقدور الموسيقار «ليست» ان يعزف دو ـ صول! كنت أقول لنفسي انني لن أتمكن قط من عزف قطعة «برامز» ولا حتى «انشودة البحارة». زرت طبيباً في مدينة بوسطن واقترح علي اجـراء عمليـة جراحية. فقام بقطع مفاصل نهاية الاصابع وبحك العظـام الصغيـرة التي تربـط الاصـابـع. كان شيئـاً مزعجـاً اذ بقيت الضمـادات على يدي شهـرين، ولكن المعجـزة حدثت فيمـا بعـد! فأستأنـفـت تمـاريـنـي وتـمـكنت من التقـدم علامتين على السلم المـوسيقي! واصبـح بوسعي عزف دو ـ ري دون جهـد وحتى دو ـ مي بقليل من الجهد. واستطيع الآن عزف كل شيء! ولكن عليَّ ان اعزفه بصورة جيدة!

لقـد تأثـرت كثيـراً بهذه المكاشفة المفاجئة غير المتوقعة تماماً. شعـرت بالاضطـراب لما كشفته لي فجأة تلك الانسانة الصغيرة البطلة من شجاعة وارادة وشغف وبصراحة وبشي من الجنون ايضاً.

طبعت قبلتين طويلتين على راحتيهـا المفتـوحتين الشـديـدتي

النعـومـة وأنـا اداعبهمـا بابهـامي . ومن ثم نهضت وسـاعـدتهـا على النهـوض . التقطت وشـاحهـا الذي كان قد انزلق الى الارض ووضعته على كتفيهـا بعنـاية فائقة . وبخطوات وئيدة على المسرح أرشدتها الى حافة الدرجات الدائرية . وقلت لها :

ـ انتبهي ! هناك اربع درجات للنزول من المسرح .

ـ أعلم ذلك . لقد سبق وأن صعدت جيداً قبل فترة قصيرة بمصاحبة أريكا .

تقدمت أمامها دون أن أترك يديها وساعدتها على النزول . كنت واعياً تماماً بمقدار الخطورة التي كان يمثله لها مثل هذا التمرين . لم أشعر قط فيما مضى بمثل هذه المسؤولية المباشرة عن حياة كائن بمثل هذه الـرقـة وهـذه الاهميـة . كنت متأثراً بالثقة التي منحتني اياها بدون تحفظ وبيديها وهي ممسكة بيدي .

وعند وصولنا الى اسفل الدرجات وحيث اصبحنا وجهاً لوجه أخذتها بين ذراعي وضممتهـا الى صدري رافعـاً اياها قليلاً لقد كانت في غاية الخفة والرشاقة . وبغية مداعبتها استدرت بها عدة دورات وهي بين ذراعي .

قالت لي ضاحكة :

ـ كلا ، كلا . ستجعلني اسقط أرضاً !

سألتها وأنا أضعها على الارض :

ـ «الباركارول» أليست تعني زورقاً صغيراً ؟

أجابتني بعد أن اطلقت ضحكة صغيرة :

كلا ، انها انشودة البحارة، وهي قطعة موسيقية معتدلة السرعة عادة.

أرشـدتها عبر صفوف المقاعد الى مخرج البيّارة وهممت باطفاء الانوار واغلاق الباب. فقالت لي :

ـ اترك ذلك. ستتولى أريكا الأمر.

أمـررت ذراعي تحت ذراعهـا فأمسكت بيـدي وتشابكت أناملنا وقدتها عبر الفسحة الخضراء. فتحدثت قائلة :

ـ ان الجو معتدل، كيف هو الليل؟

ـ الليـل صاف تمـامـاً وحـالـك الظلمة في الوقت ذاته، هناك نجوم كثيرة في السماء ولكن ليس ثمة قمر.

إني أتساءل اين ذهب؟

انـه مثـل أريكا! وإني أتساءل أين ولت تلك المرأة!

الآرأينا من الجانب الآخـر للفسحـة الخضـراء ممـراً رمليـاً الى الفنـدق تحت الاشجـار، ولمحت بعض الانوار التي كانت ما تزال تسطع من النوافذ وكانت هناك ريـح خفيفـة تهـز الأغصان فقررت على حين غرة ان أقطع الطريق عبر الغـابـة الصغيـرة. لاحظت أديث بالتأكيد ذلك التحوير في اتجاه سيرنا فتوقفت حالاً وابتعدت عني قائلة :

ـ الى أين تقودني ؟ اتركني الآن. أنا لا أعرفك على أية حال! أرجعني الى صالتي!

كانت نبـرتهـا جافة ومتسلطة وعدائية تشبه نبرة إنسان شاب تعود منـذ الصغـر على القيـادة وتـوجيـه الاوامـر. انهـا نبرة زوجة امريكية لا

أستطيع تحملها. لم يكن الأمر لعبة ولكن رغبة مني في اللعب دخلت في لعبتها.

- لقد فات الاوان يا آنسة كرول. انت تحت رحمتي. أمسكتها بحركة مفاجئة من ذراعها وسحبتها بقوة عبر الاغصان وتحت الاشجار ومن ثم وأنا ممسك بيدها ارغمتها على العدو عبر الفسحة الخضراء التي كانت تهبط باتجاه الفندق الفخم.

واليـوم وبعـد ان أجـريت لي العمليـة الخطـرة في عيني بدأت أتخيـل بصـورة أفضـل مقدار الرعب الذي سببه السباق العديم الفائدة عبـر المتنـزه للشـابـة البصيرة. إني أجد صعوبة في فهم السبب الذي دفعني الى ممارسة هذه اللعبة الفظة.

صرخت قائلة:

- كلا! كلا! توقف! أنك تؤلمني!

ثم صرخت مجدداً بكل قوتها:

- أريكا! أريكا! النجدة! أحضري!

وأخيـراً وبعـد أن تعبت - أنـا نفسي - من شدة الاعيـاء توقفت أمـام الفنـدق أسفـل درجـات المـدخل. أما أديث فقد تركت نفسها تسقط وتجلس على العشب الاخضـر الـذي يغطي المنحـدر دون ان تتـرك يدي. كنت راكعاً بالقرب منها احتضنـها برقة بين ذراعي.

- معـذرة أديث! ها نحن قد انتهينـا. كانت مجـرد تسلية! لقد وصلنا. نحن الآن أمـام الفنـدق. ستصعـدين الى غرفتـك بمـرافقتي. شدّت نفسها بالقرب من كتفي وأحاطتني بذراعيها. كانت تبكي وتضحك في

الـوقت ذاتـه وكأني بهـا طفلة أصابها الفزع من لا شيء فقمت بمداعبة شعرها. وطلبت الي فجأة قائلة :

ـ قبلني ، يا سيد. أرجوك قبلني .

لكنهـــا سبقتني وطبعت قبلة تحت اذني . كانت تغلق جفنـــاهـا وتمد وجهها الي بحثاً عن شفتي. ثم تحدثت ثانية :

ـ هذا ليس عدلاً ! ألكـوني بصيـرة لا أحـد يريـد تقبيلي؟ ولكني لست دميمة أليس كذلك؟ فأجبتها قائلاً :

ـ أنت جد دميمـــة! أنت بشعـة ! انت شنيعـة! لقـد جاء دوري لأغمـر ضحكـاتهـا بالقبل، كي أضمها بين ذراعي واداعبها تحت وشاحها وأنا أشعر بنشوة غامرة .

كان بوسعي قضـــاء الليـــل بأكمله وأنـــا جاثم بركبتي على العشب الاخضر أداعب وأقبل هذا الوجه الصغير ذا الشفتين الرقيقتين والعينين المغلقتين. لم أتجرأ على تصديق ما كان يحدث لي .

ـ وأنت يا سيد؟ هل أنت بهي الطلعة؟

مسكينة هذه البنت الصغيرة الولهانة المليئة بالأمل! من حسن الحظ انها لا تراني! لم يكن بوسعي ان أخيب ظنها. فأجبتها قائلاً :

ـ أوه، لم أعد شاباً .

ارادت النهوض والتصقت بي مجدداً واخفت رأسها في كتفي وقالت وهي ترفع وجهها نحوي :

ـ أرجـوك يا سيـد. أبقني معـك. خذني الى دارك. نعم. الى غرفتك . . كنت مضطرباً بشكل رهيب لاني أعلم بانني سأفعل ما تريد وللفترة

التي تريدها.

إنها هي التي استمعْت أولاً . أبتعدت عني فجأة ورفعت رأسها مطلقة حمحمة كتلك التي تطلقها فرسٌ وهي تحس بعاصفة، أما أنا فرأيت أمامنا نحن الاثنين المصابيح البيض الاربعة للسيارة الامريكية الجبارة التي كانت تغادر ممرات المرأب متجهة نحونا مباشرة عبر الفسحة الخضراء. كنا أمام موت محدق.

وبحركة من الهلع حاولت أن أرمي بنفسي على درجات المدخل وأنا أسحب اديث بيدي الاخرى التي كانت خلفي ولكن بعد فوات الاوان فقد كانت السيارة مندفعة على منعطف تغطيه الرمال فانزلقت وصدمتنا بواقية الطين الامامية اليمنى (وما زلت اعتقد حتى يومنا هذا أن اريكا كانت تريد اخافتنا فحسب).

تركت يد أديث من هول الصدمة وتدحرجت على طول الدرجات فاصطدمت بقوة بحجر فكُسرت يدي اليمنى وكذلك عظم الترقوة . لم أكن قد فقدت وعيي غير أني وجدت نفسي وعلى حين غرة غارقاً في ظلمة تامة : عيناي مفتوحتان دون ان ارى شيئاً . انه العذاب الحقيقي. استمعت الى اديث المرمية هي الأخرى على الارض وعلى مبعدة عدة أمتار مني تتأوه من شدة الألم ولكنها اطلقت العنان لسعادة غامرة لا تصدق، كانت تصرخ باعلى صوتها قائلة :

- إني أبصر. إني أبصر! أريكا، تعالي ! إني أبصر! إني أبصر!

تحت الشجرة المغنولية

كانت تتقدم بخطوات سريعة بمحاذاة النهر وتقطع المنحنيات العشبية للمتنزه ومن ثم تجلس أو تتقرفص في المكان نفسه بالقرب من أحد المقاعد ليس بعيداً عن شجرة المغنولية التي بدأت تفقد في هذا الفصل تويجات أزهارها. كانت الفسحة الخضراء تبدو مغطاة بأجفانٍ كبار بيض.

كان المكان جميلاً وغالباً ما يكون خالياً لكنه ليس هادئاً تماماً اذ كان العديد من الشاحنات والسيارات يمرّ دون توقف على الطريق السريعة التي تجتاز المتنزة على كتف النهر.

كانت ترتدي دوماً الفستان القطني الرقيق نفسه ذا اللون الوردي الشاحب الملتصق بجسدها لرقته كما لو كان قد غُطّس في الماء، كما كانت ترتدي صدرية من الصوف باكمام قصيرة ذات لونٍ أزرق يقرب من البياض لكثرة الاستعمال، ويبدو أنها قد حيكت في المنزل. وكانت تحتذي خفّين للاستخدام المنزلي مصنوعين من القماش

اللمـــاع المبطّن، أحـــدهمـــا مزينٌ بخصلة من الصـــوف ذات اللون الارجـواني والآخـر لم يتبق منـه سوى خيـوطـه من الصوف نفسه والتي ربما استخدمت لخياطة خصلة ثانية أختفت هي الأخرى.

كانت شابـة رشيقـة قريبـة الى الهزال، ليست جميلة حقاً لكنها غريبـة وتبـدو لي شديدة الاثارة، شعرها فاتح اللون قليل الغزارة وربما اصبح اشقر جميلاً لو عومل بعنايةٍ . كان ذراعاها ما فائدتها؟ مكسوّين بزغب ناعم مُصفر. وباختصار فقد كانت تتطابق تماماً مع الصورة التي نرسمها عادة لأوفيليا(*) الكادحة والمترددة على حافة بركة قبل غرقها، أو أنها تشبه صورة الفتيات اللواتي فارقن الحياة واللواتي غالباً ما نتخيلهن يتسكعن منـذ الفجـر في المقابر المزهرة تحت اشجار الوربيية في اليوم التالي لدفنهن. . ذلك هو ما يعجبني حقاً!

كنت ما أزال كهـلاً في حينـه ولائقـاً تمـامـاً. حدث ذلـك قبـل اصـابتي بمـرض الفالج الشّقي الذي تركني بعد سنوات عديدة نصف عاجـز واكثـر من نصف معتـوه في ذلـك المأوى الذي اقضي فيه أيامي الاخيرة في فراغ موحش.

ورثت مؤخـراً عن عمي الاميـرال خزانة ملابس بريطانية تحتوي على ستـرة براقـة مخططـة وسراويل من النسيج الصوفي الناعم لم يُتح لي الحصول عليها بسبب ضآلة مرتبي التقاعدي وأنا لم أزل برتبة ملازم بحـري وهـذه الستـرة ما برحت تمنحني هيأة زاهية. كنت قد احتفظت داخل عرّى بدلة عمي الراحل بعدد من الاشرطة والانواط التي حصل

(*) اوفيليا ـ خطيبة هاملت التي انتحرت غرقاً (مسرحية هاملت لشكسبير)

عليهـا في المعـارك البحـريـة وكنت أمسـك دومـاً مع الصحيفة اليومية بإحـدى عُصيـه ذات القبضة الفضيـة المرصّعة، وعلى هذه العصا كان هناك مخطط (وستعرف لماذا) لمرجل قاطرة.

كنت أكتفي في الأيـام السـابقـة بتـوجيه التحية الرسمية نوعاً ما الى هذه الشابة المجهولة الوحيدة الضالة في المتنزة ثم أجلس بهدوء على أحـد المقـاعـد العـامـة الكائنة خلفها تقريباً. غير أن جاذبيتي الطاغية وعصـايَ المؤثـرة منحتاني في ذلك اليوم الشجاعة والذريعة كي اقترب منها تحت شجرة المغنولية على ضفة النهر.

بدأت الحـديث في ذلـك اليـوم وأنـا ممسـك بقبعتي بيدي ومظهراً عصـايَ قائـلاً: ان مرجـل القـاطـرة كمـا تلاحظين يا آنسـة يشبه دائماً الينبوع البخاري الصغير الذي اكتشفه الماركيز ورسيستر عام١٦٦٣م. انه يحتوي على علبة نارية أو موقد موصد داخل علبة مائية مرتبطة بها.

وبينما كنت اتحدث هكذا وقلبي يخفق من شدة الانفعال كانت هذه الشـابـة قد التقطت من العشب القريب منها ورقتين كبيرتين لزهرة المغنـوليـة ووضعتهمـا على عينيهـا وظلت ممسكـة بهما باصبعيها كي تتطلع لفتـرة طويلة الى سطـح المـاء الـرمـادي استدارت نحوي فجأة بتلك النظـرة الشـاحبـة الحيـرىٰ التي عززت مظهـرها الاوفيلي وكأنها اوفيليـا بعـد الغرق هذه المرة) وخاصة انها بحركتها هذه، هزت شعرها كمـا تهتـز تحت تأثير التيار سيقان النباتات المائية المتسلقة ذات اللون الاصفر المتسخ والتي نسميها على ما أعتقد بنبات النيلوفر وبدا لي من تحت نظـراتهـا أني رأيت ابتسـامة غامضة ترتسم على شفتيها، فسرتها

بانها دعوة لي لكي نكمل حديثنا .
ـ المبدأ كما تلاحظين بسيط جداً : انه يشتمل على حجز النار داخل الماء بغية توليد البخار الذي يتجمع من ثمَّ في قنوات داخل ما يشبه القُبة .

الا نشاهد أحياناً في إحدى البقاع بركاناً مغموراً داخل بحيرة؟ ظاهرياً كان يبدو ان الآنسة أو السيدة لم تكن تصغي الي؟ ربما كنت قد أطلت في الشرح كثيراً؟ ولم أكن مقنعاً بما فيه الكفاية؟ ولكنها اطلقت فجأة صرخة غريبة وقصيرة أدت الى سقوط كمامات العيون النباتية العجيبة عن وجهها وقد بدت مهتمة جداً بعصاي ذات الرأس الكروي غير أن أهتمامها لم يكن مثلما تأملته (أي تفحّص النقوش المرسومة عليها) بل انها نهضت من مكانها واخذتها مني وأخذت تتقدم بمحاذاة النهر وهي ممسكة بها .

رأيتها وأنا ذاهل تجثو على ركبتيها وتميل الى الامام ثم تغطس عصا عمي مرات عدة بصورة عمودية داخل الماء وهي تنقب بين الطحالب وكأنها تبحث عن شيء مفقود . لم أتمكن أن اشاهد من موضعي الذي كنت فيه وهو على بعد خطوات منها سوى الهيأة المشوشة لفستانها الملتصق بجسدها المنحني والبقعة البنية على باطن قدميها المتسختين بالتراب . لقد أتاحت لي بوضعيتها تلك ، التي تشبه الطوارق ، أن اكتشف خفّيها المنفرجين قليلاً عن الكعب .

تجرأت في لحظة من اللحظات وسألتها قائلاً :
ـ هل فقدت شيئاً؟

لم تجب بشيء في باديء الامر، ثم نهضت واتجهت اليّ. أعادت لي العصا مع ابتسامة تحمل شيئاً من بلاهة الجانحين القاصرين والمتلبسين باقتراف خطأ ما. وأخيراً قالت:

ـ الماء عميق جداً وهناك طحالب، الكثير من الطحالب، شكراً جزيلاً يا سيدي.

كان صوتها أجش وكأنها مخمورة وهو أقل جمالاً على أية حال من الانطباع الذي تركه لدي الزغب الاشقر الخفيف الذي كان ينساب على ذراعيها والذي يفترض ان يزدهر تحت ابطها وعند عانتها كباقة من النعناع البري. ابتعدت بخطوات قصيرة وسريعة بمحاذاة النهر وهي تسير عكس التيار. اختفى قوامها الرشيق الرخص عبر الاغصان المزهرة لشجرة المغنولية. وفي العمق الساطع للنهر الذي كانت مياهه الهادئة والمقلقة تهتز بفعل ريح المساء.

لم أرها في اليوم التالي ولكني، في اليوم الذي تلاه وحين وصولي الى المتنزه في الساعة المعتادة مرتدياً السترة البراقة المخططة وممسكاً بالعصا وبجريدتي، فوجئت بالحشد الكبير المنتشر على جوانب شجرة المغنولية في نفس الموقع الذي كانت فيه الشابة تنقب في المياه بمساعدة عصا عمي الاميرال. وكانت سيارة رافعة قوية بلون أحمر قرمزي قد قدمت من الطريق السريع عبر الفسحة الخضراء وغرزت نفسها في الارض بصلابة على ضفة النهر بفضل مساندها التي تعمل بضغط الهواء. كان حول السيارة وفوقها رجال اطفاء يرتدون قبعات

ويصـــدرون الاوامــر ورجــال اطفاء آخرون يرتدون خوذاً ذهبية وينفذون اعمــالهم كمــا كان هنــاك ايضــاً رجال الشرطة والدرك بزاتهم النظاميا فضلاً عن ممرضين بلباسهم الابيض وحشد من الفضوليين الذين كانوا يتسكعــون على العشب الأخضــر حول شجــرة المغنــوليــة جذبهم هذا العرض المتعدد الالوان .

كانت ذراع الـــرافعـــة المنبسطـــة تنيف على سطــح المــاء ورجــال الضفــادع الــذين يرتدون ملابس الغوص يتخبطون داخل النهر حاملين قنــاني الغاز على ظهورهم . كانوا يسحبون بايديهم كلاّبات الاخطبوط المعــدني الــذي كان يهبــط ببــطء من رأس الــرافعــة باتجاههم ومن ثم يختفــون واحداً فواحداً وأقحمت نفسي مع المتسكعين غير الاعتياديين الذين كانوا يتبادلون المعلومات المضلّلة .

- لقد مضى قرابة ثمانية اسابيع على اختفائهم . .

- وفضلاً عن ذلك ، يبدو انها سيارة مسروقة . .

- لانهم وجدوا جثة في مكان رسو القوارب .

وهذا أوحى لهم بفكرة البحث داخل النهر . .

وكان الغواصون ببدلاتهم المطاطية قد خلعوا اقنعتهم وهم ينتظرون جالسين على ضفة النهر.

ظهر في البداية سطح السيارة ترفعها الاسلاك المتوترة بمشقة تحت صرير اصوات السلاسل الكهربائية . ومن ثم ظهر هيكل السيارة بكامله وهــو مائــل قليــلاً الى الامام مع العجلات الاربع . وكانت ملأى بالماء

الموحل ومغطاة بالطحالب المائية . وحين كانت السيارة ترتفع كانت تنبثق من كل جانب منها الشلالات وتسقط على النهر محدثة ضجيجاً ندياً .

وعند بلوغها ارتفاعاً مقبولاً قام رجال الاطفاء الموجودون على الشاحنة بادارة رأس وذراع الرافعة وانزلوا السيارة بعناية فائقة على العشب القريب من الضفة وكأنها سلة صيد سمك سوداء هائلة تقطر ماءً.

وبوسعنا القول انها كانت خائرة القوى . وكنت أسمع حولي بعض الهمسات لان كل واحد لزم الصمت المطبق كما يحدث في السينما .

- كما ترى انها سيارة مسروقة موديل ١٩٦٨ . .

- يبدو انهم كانوا قد خرجوا في منتصف الليل . .

ودنا أحد رجال الاطفاء وهو يرتدي لباساً جلدياً من السيارة وبدأ يسحب بقوة حتى نجح في فتح الباب الخلفي الأيمن ، فتدفقت كمية من الماء الموحل محدثة صوتاً وانتشرت على الارض الخضراء جارفة معها بعض زهيرات المغنولية .

لاحظنا كتلة طافية من القماش واللحم البشري تسقط في مؤخرة السيارة بعد ان كان ضغط الماء قد ابقاها ملتصقة بسقف السيارة .

كانا جسدين متشابكين لطفلتين عمراهما بين ثلاث الى اربع سنوات وهما بملابس النوم لا يزالان متشبثتين باغطية ووسائد النوم . إحداهما كانت ترتدي بيجاما وردية اللون من القطن الناعم أما الاخرى فترتدي صدرية مزينة بالزهور وملفوفة بخرقة من القماش .

كانت بطناهما منتفختين بشكل هائل ومحددتين باللون الازرق، وكان وجهاهما بلون أخضر مزرق تشوبهما تكشيرة الاختناق. كانت عيونهما شاخصة ومفتوحة الا انهما مشوشات بفعل الشعر المبعثر والطحالب ووحل النهر، أنها صورة مذهلة تمزج ما بين الجمال والرعب المطلق. وحين كان الماء الموحل ينزاح كنت اتعرف شيئاً فشيئاً على شابتي المتشردة للأيام الخوالي وهي جالسة في مقدمة السيارة مكوّرة ومطوية تحت المِقود الا انها ثابتة في مكانها بحزام الأمان ترتدي صدريتها الصوفية وفستانها الوردي الشديد الرقة المرتفع حتى البطن وقد صيرّه الموت كفناً مبللاً.

لقد تسبب غرقهما الطويل في اتلاف اجسادهما وحولهما الى لون مائل للبنفسجي.

لم استطع رؤية وجهها المتسخ والمتعب ومظهرها الحائر الشبيه بمتشردة يائسة ،

وأمام النظرات الرافضة والحزينة لرجال الشرطة الذين كانوا يحتوون الجمهرة أخرج الممرضون بمساعدة رجال الاطفاء الجثث من السيارة بسرعة وغلفوها ثم وضعوها على نقالة وحملوها باتجاه الطريق العامة حيث كانت تنتظرهم سيارة الاسعاف كي تتوجه الى معرض البلدية للجثث المجهولة الهوية. بعد ذلك رُفعت السيارة بواسطة رافعة واصبحت مقدمتها معلقة في الهواء.

ومن بين الاشياء المبعثرة على العشب التي حشرها داخل «حقيبة بحارة» أحد رجال الاطفاء الشباب ذو السحنة النرويجية رأيت خُفّي

الاستخدام المنزلي المصنوعين من القماش اللماع المبطن. لقد كانا كلاهما مزينين بخصلة من الصوف الارجواني.

اعمال الكاتب موريس بونس.

- فيرجينال و ميتروبات - حصلت على الجائزة الكبرى للقصة القصيرة - عام ١٩٥٥
- الاسكافي أريستوت ١٩٥٨
- زائر المساء ١٩٦٠
- الفصول ١٩٦٥
- روزا ١٩٦٧
- ولع سيباستيان ١٩٦٨
- الانسة (ب) ١٩٧٣
- بيت صنّاع الجعّة ١٩٧٣
- الحلو - المر ١٩٨٨

دار المأمون للترجمة والنشر

تأسست في منتصف عام ١٩٨٠ لتتـولى مســؤوليـة التـرجمة ونشر المطبوعات الدورية الناطقة باللغات الاجنبية والمطبوعات المترجمة من والى اللغـة العـربيـة وبما يؤمن الاسهام الفعال في عملية التواصل والتفاعل الحضاريين بين العراق والعالم.

تصدر دار المأمون الصحف التالية:ـ

١. جريدة بغداد اوبزرفر-يومية سياسية ناطقة باللغة الانكليزية.

٢. مجلة بغداد ـ شهرية سياسية عامة ناطقة باللغة الفرنسية.

٣. مجلة كلكامش ـ مجلة الثقافة العراقية الحديثة ـ فصلية ثقافية ناطقة باللغة الانكليزية.

وتترجم الدار كتبا من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية واخرى من اللغة العربية الى اللغات الاجنبية وتصدرها.

كما تقدم خدمات الترجمة الفورية والتحريرية للمؤتمرات والندوات الدولية داخل العراق وخارجه.

صدر عن دار المأمون الكتب الآتية المترجمة الى العربية

حسب تاريخ نشرها

العنوان	تأليف	ترجمة
١.دليل مترجم المؤتمرات	جان هيربرت	سميرعبد الرحيم الچلبي
٢.رباعية الحرب (قصيدة من الادب الانكليزي)	جورج ماكبث	ياسين طه حافظ
٣.فن الرواية (دراسة نقدية)	كولن ولسن	محمد درويش
٤.العاصفة (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٥.كلب الصيد الابيض ذو الاذن السوداء (رواية من الادب الروسي)	جافرييل تروبيولسكي	عبد الواحد محمد
٦.مكبث (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٧.الملك لير (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٨. بين الفن والعلم (دراسة نقدية)	دولف رايسر	د.سلمان الواسطي
٩.مدن لامرئية (رواية من الادب الايطالي)	ايتالو كالفينو	ياسين طه حافظ

الكتاب	المؤلف	المترجم
١٠ .بلاد الثلوج (رواية من الادب الياباني)	ياسوناري كاواباتا	لطفية الدليمي
١١ .السيدة دالاواي (رواية من الادب الانكليزي)	فرجينيا وولف	عطا عبد الوهاب
١٢ .جن (رواية من الادب الفرنسي)	الان روب غرييه	د .سعيد علوش وخديجة بناني
١٣ .عطيل (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٤ .هاملت (مسرحية من الادب الانكليزي)	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٥ .شكسبير والانسان المستوحد (دراسة نقدية)	جانيت ديلون	جبرا ابراهيم جبرا
١٦ .الحداثة (الجزء الاول) (دراسة نقدية).	مالكم برادبري وجيمس ماكفرلن	مؤيد حسن فوزي
١٧ .القطار السريع (رواية من الادب الالماني)	ارمكارد كوين	اقبال ايوب
١٨ .صناعة المسرحية (دراسة نقدية)	ستيورات غريفتش	عبد الله الدباغ
١٩ .الازهار البرية (مجموعة قصص قصيرة من الادب الامريكي)	ارسكين كالدويل	علي الحلي
٢٠ .حبة قمح (رواية من الادب الافريقي)	نغوغي واثيونغو	سلمان حسن ابراهيم
٢١ .قبو البصل (مجموعة قصص قصيرة من الادب الالماني)	عشرون قاصاً المانياً	د .سامي حسين هاشم

٢٢.معجم التعابير الاجنبية في اللغة الانكليزية	ب.أ.فشيان	سمير عبد الرحيم الچلبي
٢٣.مصطلحات المؤتمرات (دليل لأعضاء المؤتمرات والمترجمين)	جان هيربرت	سمير عبد الرحيم الچلبي
٢٤.مذكرات ماكس مالوان (عالم الاثار زوج اجاثا كريستي)		سمير عبد الرحيم الچلبي
٢٥.الثعلب (رواية من الادب الانكليزي)	د.هـ.لورنس	نمير عباس مظفر
٢٦. الرجل العاشر (رواية من الادب الانكليزي)	غرَيم غرين	هادي عبد الله الطائي
٢٧.طريق فلاندرا (رواية من الادب الفرنسي)	كلود سيمون	باسيل قوزي
٢٨.جويس (دراسة نقدية)	جون كروس	عبد الوهاب الوكيل
٢٩.النفق (رواية من الادب الاسباني)	آرنستو ساباتو	مروان ابراهيم صديق
٣٠.حوار الرؤية (دراسة فنية)	ناثان نوبلر	فخري خليل
٣١.ملحمة رامايانا	ر.ك. رامايان	د.جوزيف نادر بولس
٣٢.الخطوات الضائعة (رواية من الادب الكوبي)	اليخو كاربنتير	سالم شمعون
٣٣.الورقة الخضراء (مختارات شعرية من الادب السوفيتي المعاصر)	ايفور يرماكوف	د. عباس خلف
٣٤.الانطباعية	جان ليماري	فخري خليل

٣٥.الموسوعة المسرحية	جون رسل تيلر	سمير عبد الرحيم الچلبي
٣٦.اللغة في الادب الحديث - الحداثة والتجريب -	جاكوب كورغ	ليون يوسف وعزيز عمانوئيل
٣٧.بحر ساركاسو الواسع	جين ريز	فلاح رحيم جاسم

٣٨ ـ ايلول بلامطر اختارها وترجمها وقدم لها جبرا ابراهيم جبرا من الادب الانكليزي والامريكي المعاصر

الحلو - المر

الحلو - المر نبات ذو ثمار حمر من فصيلة الباذنجانيات اكتسب تسميته من مذاق لحائه المتغير. وهذه القصص القصيرة الاحدى عشرة التي نحن بصددها تحمل المذاق الغريب ذاته مازجة ما بين مباهج الحياة وما تحمله من معاني الحب من جانب وما يجسده رحيل الانسان من الأم وأحزان من جانب آخر.

وفي أجواء موريس بونس الشديدة الخصوصية وعبر مشاهد طبيعية خيالية ومدن غريبة وعلى شواطىء الانهار او حافات القبور الباردة تتلاقى الشخوص دون معرفة مسبقة وتتجاوز دون ان يرى بعضها بعضاً وتتجاذب اطراف الحديث دون ان تتفاهم. صحيفة اللوموند الفرنسية وضعت هذه القصص التي عكفت على نشر البعض منها في ملاحقها الاسبوعية الثقافية بانها «قصص مدهشة».

وقد حاز المؤلف موريس بونس بكتابه هذا جائزة الأكاديمية الفرنسية للقصة القصيرة لعام ١٩٨٥.

السعر: ١,٢٥٠ فلسا

دار المأمون للترجمة والنشر